حرف

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

العدد 152

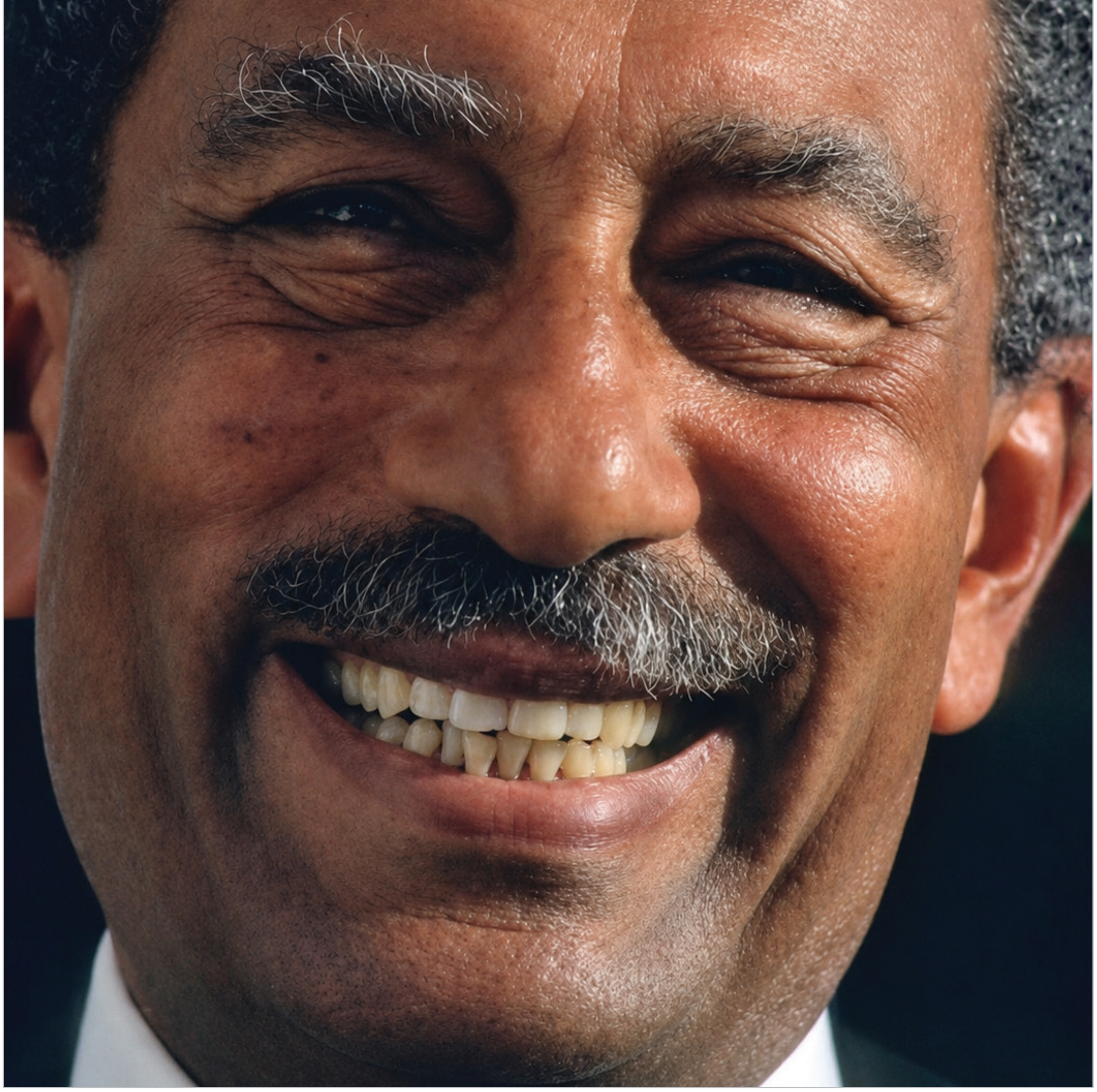
الأربعاء
25 نوفمبر 2026
15 جمادى الآخرة 1448
16 هاتور 1743

المحرر العام: محمد الباز

ملحق خاص

شهداء السلام

السادات يُشرق من جديد





الرئيس الشهيد يشرق من جديد



السادات يهزم خصومه من قبره

محمد الباز

بينما كنت أتابع منح الرئيس السادات الميدالية الذهبية للكونجرس تكريمًا له واعترافًا بإنجازه التاريخى فى صُنع السلام فى الشرق الأوسط، فكرت فيما سيقوله خصومه عن هذا التكريم، متوقعًا تمامًا ما سيذهبون إليه.

لقد أغتيل الرئيس السادات منذ ما يقرب من ٤٥ عامًا فى يوم مجده، ٦ أكتوبر، اليوم الذى حقق العرب فيه أول انتصار تاريخى على إسرائيل، وهو الانتصار الذى اكتمل بصناعة السلام واسترداد الأرض. ورغم مرور كل هذه السنوات، فإن هناك من لا يزالون يناصبونه العداء، ويتجرّأون عليه وعلى سيرته، ويهيلون التراب على كل ما فعله، بل يحمّلونه كل خطايا الأرض، ويعتبرونه المسئول عن كل ما يحيط بنا من مشاكل وأزمات.

لقد أطل الرئيس السادات ليهزم خصومه من قبره من جديد، وليضعهم مرة أخرى فى مواجهته، ليُظهر هزالهم وتهافتهم الشديد.

كان ما حدث مربكًا لخصوم الرئيس الشهيد، وعندما رصدت ما قالوه عن هذا التكريم، تأكدت أنهم أصبحوا خارج التاريخ والمنطق والعقل، والموضوعية أيضًا.

أمسك المعارضون للرئيس السادات بالجهة التى منحته الميدالية الذهبية، وبدأوا يفتشون وراء دوافعها، وقالوا إن تكريم السادات من الكونجرس ليس إلا تقديرًا لرئيس حقق فى المقام الأول المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة. وبمنطق ساذج مراهق، راحوا يؤكدون أن منح الجائزة له بعد ٤٥ عامًا من وفاته مكافأة أمريكية متأخرة على خروجه من الصراع العربى- الإسرائيلى.

فات هؤلاء أن يعرفوا أن دافع الرئيس السادات فى مبادرته لصناعة السلام كان استرداد الأرض، وأنها كانت مصنوعة بعناية.

فبعد سنوات من الحرب، كان الوضع جامدًا متجمدًا، وقبل أن تضيع ثمار النصر الذى صنعه المصريون بدمائهم، رأى السادات أنه لا بد أن يحرك المياه الراكدة، فهز العالم بصدمة لم يتوقعها أحد، وسار بخطوات محددة: زيارته إلى إسرائيل فى العام ١٩٧٧، ثم مباحثات كامب ديفيد فى العام ١٩٨٧، وأخيرًا معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى العام ١٩٧٩.

عندما هبطت طائرة الرئيس السادات فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ بمطار «بن جوريون» بتل أبيب، تجمدت أعصاب العالم، واعتبر مراقبون أنه يعادل هبوط أول إنسان على القمر.

يمكنك أن تقرأ كثيرًا عما قيل عن الذى فكّر فيه الرئيس السادات قبل نزوله من طائرته، بما فيه أنه كان يتوقع انتظار فريق من الكوماندوز أسفل الطائرة لاغتياله هو والفريق المصاحب له، ويمكنك أن تقرأ كثيرًا عن انطباعات ومشاعر المصاحبين له، لكننى أعتقد أن ما كان يفكر فيه الرئيس السادات طوال رحلته من القاهرة إلى تل أبيب، هو كيف تكون هذه الزيارة بداية لاسترداد الأرض، والحفاظ على مكاسب النصر، وتحقيق مصالح مصر فى المقام الأول.

> العار الأكبر الذى يلاحق خصوم السادات هو فى انتهازهم فرصة تكريمه لإهالة التراب على كل ما يتعلق به

لم يذهب الرئيس السادات إلى تل أبيب- وكر خصومه وأعداء مصر والأمة العربية- من أجل تحقيق مصالح إسرائيل، أو ليخرج من الصراع العربى- الإسرائيلى لأن أمريكا كانت تريد ذلك أو تخطط له، فقد كان ما يحرك السادات فى المقام الأول هو تحقيق مصالح بلاده، وهو ما لا يمكن أن يلومه أحد عليه، أو يأخذ منه ثغرة لطعنه وتشويه مساره ودوافعه.

ولأن ما جرى كان صاعقًا، فقد حاول البعض تشويهه من خلال الغمز واللمز فى توقيت الاحتفالية. قالوا إن إقامة الحفل بهذه الصورة فى واشنطن، فى ظل استمرار الأزمات والحروب فى المنطقة، التى تتورط فيها أمريكا وإسرائيل بشكل مباشر، تبعث برسائل للترويج لنموذج التطبيع والسلام المنفرد؛ باعتباره الحل الوحيد لأزمات وتوترات الشرق الأوسط.

مَن قالوا ذلك جاهلون تمامًا بما يجرى على الأرض، ولا يعرفون أن هذه الاحتفالية ليست وليدة اليوم، ولم يفكر فيها الكونجرس بعد حرب ٧ أكتوبر، أو بعد الحرب الأمريكية الإسرائيلية على إيران.

يمكننا أن نعود قليلًا إلى التفاصيل، فالوقوف عندها لن يضر.

لقد تم منح الرئيس السادات الميدالية الذهبية للكونجرس فى احتفالية أقيمت فى قاعة التماثيل الوطنية بمبنى «الكابيتول» فى واشنطن يوم الأربعاء ١٨ نوفمبر ٢٠٢٦، وهو بذلك أول زعيم مصرى وعربى ينال هذا الوسام المدنى الرفيع.

فى حيثيات منح السادات للوسام، نقرأ أنه تقديرًا لإرثه التاريخى ودوره فى مسار السلام فى الشرق الأوسط، وهو وسام لم تمنحه الإدارة الحكومية الأمريكية، بل أقر الكونجرس قانونًا بمناسبة الاحتفال بمئوية الرئيس السادات، وقد وقعه الرئيس الأمريكى، دونالد ترامب، فى فترته الأولى، وتحديدًا فى ١٣ ديسمبر ٢٠١٨، وهو القانون الذى حظى بتأييد واسع من أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب.

ولمن لا يعرف، فإن هذه الميدالية من أرفع الأوسمة المدنية التى يمنحها الكونجرس الأمريكى، وتعود إلى العام ١٧٧٦، عندما مُنحت أول مرة للجنرال جورج واشنطن، ولا يمنحها الكونجرس بشكل دورى، بل يتطلب الأمر تشريعًا خاصًا يوافق عليه ثلثا أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب، ويتم صك كل ميدالية بتصميم خاص بمن يتم تكريمه، وقد صممت ميدالية تكريم الرئيس السادات بصورة جانبية له مع اسمه، وعبارة «عاش من أجل السلام ومات من أجل المبادئ»، وهى العبارة التى قال الرئيس السادات إنه يحب أن تُكتب على قبره عندما يموت، وهو ما حدث بالفعل.

هذه التفاصيل التى أصبحت معروفة للجميع فيما يخص الميدالية والتكريم، وكيف بدأ التفكير فيه، جعلت تجارة مَن يتحدثون عن التوقيت ودلالاته مجرد تجارة كاسدة لا قيمة لها، فلم يتم التفكير فى استحضار السادات الآن حتى يصبح نموذجًا ومثلًا فى السلام المنفرد مع إسرائيل، التفكير فى التكريم بدأ منذ سنوات، تحديدًا فى عام مئويته، ما يعنى أن التكريم تم للسادات لذاته، ولدوره، ولإرثه، ولتأثيره، بعيدًا عن التهويمات التى غرق فيها البعض، فقد تم تكريم السادات لأنه يستحق كواحد من قادة العالم الذين يرفعون راية السلام، باعتباره الحل الوحيد لكل الأزمات والمشاكل التى يعانى منها العالم الآن وقبل الآن.

أعاد خصوم السادات- على هامش تكريمه أيضًا- حديثهم الذى أصبح مبتذلًا ومتهافتًا وخارجًا عن السياق، فقالوا إن تكريم السادات يأتى لأنه فرّط فى التضامن العربى وفى القضية الفلسطينية. إنهم يعتبرون- ولا يزالون- معاهدة السلام، التى تم التوقيع عليها فى العام ١٩٧٩، كانت سلامًا منفردًا، خرجت به مصر من معادلة الصراع، ما أضعف الموقف التفاوضى العربى- الفلسطينى لعقود طويلة، وسمح لإسرائيل بأن تنفرد ببقية الجبهات العربية، تفعل فى كل جبهة ما تشاء.

الكلام قد يكون فى ظاهره صحيحًا، لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا.

ويمكن لهؤلاء أن يراجعوا ما قاله الرئيس السادات وهو يتحدث عن مبادرته للسلام ومباحثاته فى كامب ديفيد، ثم وهو يوقع معاهدة السلام، ثم عليهم أن يقرأوا ما قاله فى خطابه الشهير أمام الكنيست الإسرائيلى فى نوفمبر ١٩٧٧.

كان الرئيس السادات حريصًا فى خطابه أمام الكنيست- ننشره كاملًا هنا- على التأكيد أن القضية الفلسطينية هى جوهر الصراع وأساسه، وأنه لا يمكن تحقيق سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط دون حلها، وتلبية الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى.

يمكننا أن نستمع إليه وهو يقول: «حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل، بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية، فإن ذلك لن يحقق أبدًا السلام الدائم العادل الذى يلح العالم كله عليه».

لنسمعه كذلك وهو يقول: «وبكل الصدق أقول لكم: إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين، وإنه لخطأ جسيم لا يعلم مداه أحد، أن نغض الطرف عن تلك القضية أو ننحيها جانبًا».

واسمعوه أيضًا وهو يشدد: «القدس عربية، ولن نقبل أن تكون موضع مساومة أو جدل، ولن نقبل أن تظل تحت الاحتلال».

طالب الرئيس السادات، فى خطابه، بالانسحاب الكامل من كل الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧، وألح على ضرورة الاعتراف بالحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى، وفى مقدمتها حقه فى تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة، وحذر من أن القضية الفلسطينية لم تعد موضوع تجاهل أو إنكار من أحد، فحتى الولايات المتحدة الأمريكية، التى هى حليف إسرائيل الأول، تعترف بأن للشعب الفلسطينى حقوقًا مشروعة.

لماذا لا يعيد مَن يطعنون فى الرئيس السادات باعتباره باع القضية الفلسطينية عندما ذهب إلى تل أبيب قراءة هذا الخطاب، لماذا لا يعيدونه على مسامعهم، حتى يعرفوا كيف كان ينظر إلى القضية، وما الذى كان يريده لها؟ لكنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، لأنهم لا يريدون أن يرجعهم شىء عن إدانة السادات وتحميله كل خطايا الأرض.

بعد عودة الرئيس السادات من تل أبيب، وتحديدًا فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٧، عقد مؤتمر مينا هاوس، كاجتماع تحضيرى لمؤتمر جنيف للسلام، ودعا فيه السادات كل أطراف النزاع والقوى الدولية «مصر، إسرائيل، منظمة التحرير الفلسطينية، سوريا، الأردن، لبنان، الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتى، والأمم المتحدة»، ولم تحضر إلا مصر وإسرائيل والولايات المتحدة والأمم المتحدة، وكان هذا الموقف هو أول إفساد لجهود السادات من أجل القضية الفلسطينية.

فى المؤتمر وضعت مصر مقاعد خالية حول مائدة المفاوضات، وأمامها أعلام كل الأطراف المدعوة، وكان علم فلسطين حاضرًا، وعندما اعترض رئيس الوفد الإسرائيلى «إلياهو بن إليسار» على وجود علم فلسطين، وهدد بعدم دخول القاعة إلا بعد إنزاله، لجأت مصر إلى حيلة إنزال كل أعلام الدول المشاركة، فلم يكن لها أن تنزل علم فلسطين وحده.

لم تتعامل منظمة التحرير الفلسطينية، التى كان يقودها ياسر عرفات، بنضج مع الموقف، فقد قاطعت المؤتمر بحجة أن زيارة السادات للقدس كانت خطوة أحادية كسرت الإجماع العربى، وخضعت للضغوط العربية من دول شكّلت فيما بينها ما أطلقوا عليه «جبهة الصمود والتصدى»، وهى دول ليبيا وسوريا والجزائر واليمن الجنوبى، وقررت مقاطعة أى مؤتمر أو مبادرة سلام ترتبط بتحركات السادات، وقامت بتجميد العلاقات مع مصر، وراحت المنظمة تتحدث عن أن إسرائيل ترفض الاعتراف بها كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى، أو القبول بقيام دولة فلسطينية، وأرادت أن تحصل على ضمانات مسبقة قبل أن تحضر أى اجتماع مع إسرائيل.

فى مقابل هذه المقاطعة والتصعيد السياسى ضد مصر، تمسكت القاهرة بما رأت أنه فى مصلحة فلسطين، فقد تمسك الوفد المصرى فى مؤتمر مينا هاوس- وكان برئاسة عصمت عبدالمجيد وعضوية عمرو موسى وأسامة الباز- بمناقشة الانسحاب الإسرائيلى الشامل والحقوق الفلسطينية.

أضاعت منظمة التحرير الفلسطينية هذه الفرصة من يدها، كما أضاعت فرصًا أخرى بعد توقيع معاهدة السلام فى عام ١٩٧٩، فبعدها تغيرت الأوضاع تمامًا، وكان رد فعل السادات مجرد رد على التصعيد السياسى ضده، والتشهير غير الأخلاقى به.

كان الرئيس السادات يرى أن اتفاقية كامب ديفيد وضعت أول التزام إسرائيلى عملى بالاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، وذلك من خلال النص على فترة مدتها خمس سنوات يتم فيها منح الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة حكمًا ذاتيًا كاملًا، وتحل فيها الإدارة العسكرية الإسرائيلية تمهيدًا لتحديد الوضع النهائى.

وأكد السادات، أكثر من مرة، أن مصر لم توقع صلحًا منفردًا، وأنها فتحت الباب أمام الفلسطينيين ليقرروا مصيرهم بأنفسهم، وأنها وضعت أقدام الفلسطينيين على أول الطريق، وأن عليهم استغلال هذه الفرصة بدلًا من الاكتفاء بالشعارات والرفض.

وبدلًا من أن تنتهز منظمة التحرير الفلسطينية الفرصة التى جاءهم بها السادات على طبق من ذهب، شنوا هجومًا عليه واتهموه بالخيانة، وكان طبيعيًا أن يرد على ذلك كله، فقد اعتبرهم يتاجرون بالقضية، وبأنهم يضيّعون الفرص التاريخية كما أضاعوها منذ عام ١٩٤٨، وكان طبيعيًا أن يقول إن مصر لن تسمح لأحد بأن يزايد عليها، بعد أن قدمت آلاف الشهداء من أجل فلسطين.

ورغم هذا الموقف المتعنت من الفلسطينيين وبعض الدول العربية من السادات، فإنه واصل عمله من أجل القضية الفلسطينية، فقد دخلت مصر فى مفاوضات شاقة مع إسرائيل حول صلاحيات الحكم الذاتى والقدس والمستوطنات، وردت على ممارسات إسرائيل مثل ضم القدس وقصف المفاعل النووى العراقى بتعليق مفاوضات الحكم الذاتى عدة مرات، وأكد أن القدس الشرقية أرض عربية محتلة لا يجوز تغيير وضعها، وأن استمرار الاستيطان يهدد عملية السلام.

لم يكن الرئيس السادات مخطئًا فيما فعله، لقد بذل كل ما يستطيعه ليضع الفلسطينيين- كما قال- على بداية الطريق، لكنهم أضاعوا الطريق من تحت أقدامهم، وبعد ذلك وحتى الآن، يأتى من يروّج لأن السادات خان القضية، ولأن الكونجرس يكرمه لأنه باع الفلسطينيين وراح يعقد صلحًا منفردًا، فهل رأيتم تضليلًا أكثر أو أكبر من هذا؟

العار الأكبر الذى يلاحق خصوم السادات هو فى انتهازهم فرصة تكريمه لإهالة التراب على كل ما يتعلق به، فعلى هامش هذا التكريم بدأ خصوم الرئيس الشهيد يستحضرون سياساته الداخلية، وتخيل أنهم بعد كل هذه السنوات يحمّلونه مسئولية الأزمة الاقتصادية التى تعيشها مصر بفعل وتأثير الانفتاح الاقتصادى الذى بدأه فى السبعينيات، وكأنه وحده مَن يجب أن نسأله عما جرى لنا.

فى اعتقادى أن خصوم السادات يحتاجون إلى علاج نفسى، فهم يعانون من عقدة اسمها أنور السادات، وهذه العقدة- للأسف الشديد- تزداد مع الأيام، فلا موضوعية فيما يقولون، ولا عقل أو منطق فيما يحكمون به عليه، لدى كل منهم دافعه الشخصى ورغبته فى الانتقام، لكن الرئيس السادات صاحب الانتصار الكبير فى أكتوبر ٧٣ لا يزال يطل عليهم من قبره.. وفى كل مواجهة بينه وبينهم ينتصر عليهم ويسحقهم بالضربة القاضية.



بلسان البطل

فى لحظة فارقة من تاريخ مصر والمنطقة، اتخذ الرئيس الراحل محمد أنور السادات قرارًا غيّر مسار الصراع العربى الإسرائيلى، حين أعلن مبادرته للذهاب إلى القدس، فاتحًا فصلًا جديدًا فى تاريخ المواجهة والتفاوض، ومثيرًا عاصفة من ردود الفعل السياسية والشعبية التى تجاوزت حدود المنطقة.

ومن صفحات مذكراته «البحث عن الذات»، نستعيد رواية السادات نفسه لهذه الرحلة الاستثنائية، منذ تشكل فكرة المبادرة، مرورًا بكواليس اتخاذ القرار والاستعداد للزيارة، وصولًا إلى خطابه أمام الكنيست الإسرائيلى، وما أحاط بهذه الخطوة من حسابات وتحديات ومواقف تاريخية.

هنا يتحدث السادات بلسانه، ويستعيد تفاصيل واحدة من أكثر اللحظات مفصلية فى مسيرته السياسية، موثقًا رؤيته للأحداث ودوافعه والرهانات التى وضعها أمام التاريخ، فى شهادة تتيح للقارئ الاقتراب من عقل صاحب القرار، والتعرف على روايته للأحداث التى صنعت تحولًا كبيرًا فى تاريخ المنطقة.



جمال السادات يتسلم الميدالية الذهبية للكونجرس بحضور وزير الخارجية

1 لا شىء يوازى الجلوس أمام قناة السويس

من أسعد لحظات حياتى، فى الفترة الأخيرة، تلك الساعات التى أقضيها فى كشك صغير عادى على حافة قناة السويس، أرقب المشروعات والإنشاءات الجديدة.

وفى كل مرة أزور فيها مدن القناة يمثل أمام عينى يوم ٥ يونيو ١٩٧٥، عندما وصلت إلى بورسعيد ومن مكان الطائرة الهليكوبتر أخذت السيارة وتوجهت لكى أفتح قناة السويس بعد أن ظلت مغلقة لثمانى سنوات كاملة، لن أنسى أبدًا ذلك اليوم، كانت الفرحة التى تشع من عيون كل رجل وامرأة وطفل شيئًا جميلًا حقًا.. لقد عادوا إلى وطنهم أخيرًا بعد سنوات بأكملها من التشريد والنفى والضياع.

لا يستطيع أحد أن يقدر هذه الفرحة وأثرها على النفس مثل من اقتلعت جذوره فعانى من إبعاده بالقهر ورغم إرادته عن وطنه.. أو عن مدينته أو عن الشارع الذى يقطنه والصحبة التى يجالسها كل يوم.. أو عن أرضه التى يعرفها جيدًا ويحبها فهو نبت منها وبدونها لا يكون.

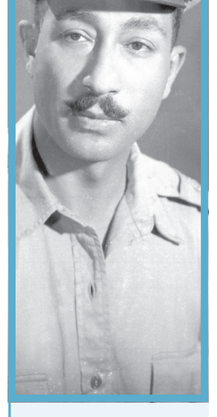
ونحن فى مصر شعب عمره سبعة آلاف سنة قدم للعالم أول حضارة أهم مقوماتها حب الأرض والالتصاق بها.. لذلك لم تكن الفرحة التى رأيتها على وجوه الناس فرحه الإنسان بخير أو مكسب يناله.. كانت فى الواقع أكثر من هذا بكثير وأبعد أثرًا.. كانت فرحة يأس طويل تحول فجأة إلى أمل.. نبت ذبل وانتهى فإذا بالحياة فجأة تدب فى أوصاله.. فقد هجر هؤلاء الناس لثمانى سنوات كاملة ماتت خلالها أجيال وولدت أجيال.. وتساءل الناس عبر الزمن متى العودة؟!

ولكن السؤال ظل بلا إجابة ولو حتى على الأفق البعيد.. فإذا أخذنا فى الاعتبار أن أهل القناة- دون شعب مصر بأجمعه- لهم حياتهم الخاصة التى تتمثل فى البحر والقناة، لأدركنا مدى فرحتهم بالعودة.. التى لم تكن مجرد عودة إلى الوطن.. بل إلى الذات نفسها.. فكما أن الأرض تمثل لنا نحن أهل الوادى قمة القدسية والأصالة، كذلك القناة والبحر بالنسبة لهم.. فالقناة هى التى شكلت نمط حياتهم، وبالتالى شكلت وجدانهم جيلًا بعد جيل حتى أصبحت هذا الوجدان نفسه.

فى ذلك اليوم ٥ يونيو ١٩٧٥ الذى ما زال قريبًا من قلبى كل القرب لن أنسى أبدًا هذا المنظر الذى هز كيانى هزًا.

السيارة متجهة إلى مبنى هيئة القناة، وفجأة يعترض الطريق أحد الرجال ويشير إليها بالتوقف.. كان شيخًا طويل القامة شعره الأبيض يتدلى على كتفيه مهيب المنظر حاد النظرات رغم شيخوخته.. حاول الحراس إبعاده فقلت لهم اتركوه.. وأمرت السائق بالتوقف.. نظر إلى الرجل نظرة طويلة ثم ركع على الأرض أمام السيارة ساجدًا لله يشكره.. ثم قام وأشار إلى الموكب باستكمال المسير، وفى ومضة عين اختفى بين الجماهير المحتشدة.

لم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة زمن.. ولكن وراء هذه اللحظة كانت تكمن أيام وأعوام من اليأس والعذاب.. ورغم قصر هذه اللحظة نفسها فقد كانت كل شىء بالنسبة لهذا الشيخ.. فقد امتد به العمر ليرى بعينيه وطنه وقد عاد إليه.. ربما لن يعيش به طويلًا، لكنه سيدفن فى ترابه.. من هنا كان الإحساس بالطمأنينة والأمان والسلام.. مما جعله يسجد لله امتنانًا لأنه عز وجل قد بدد الظلمات بنور لم يكن فى الحسبان.



فتحت قناة السويس بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها

2 رسالة «العمق بالعمق»

تركت الشيخ المهيب الوقور خلفى وذهبت لحضور مراسم افتتاح القناة وصورته ما زالت ماثلة أمام عينى تهز وجدانى هزًا.. وبمجرد وصولى تقدمت إلىّ القوات المسلحة بوثيقة تسليم القناة من القوات المسلحة إلى الإدارة المدنية لهيئة القناة، وقعتها ثم ركبت المدمرة ٦ أكتوبر وفتحت القناة.

كان العالم كله يقف إلى جانبى فى ذلك اليوم، نفس العالم الذى كان يردد قبل ذلك بأشهر قليلة أن الفتاة قد فقدت قيمتها، بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها.

ولكن لا شىء مثل الواقع، فهو الذى يدحض كل افتراء، وهو الذى يجعل الناس تتحول من حال إلى حال.. ففى ٥ يونيو ١٩٧٥ كان العالم ممثلًا فى الوفود التى تدفقت على القناة يحتفل معى وكأنه يعلن أن يوم ٥ يونيو لم يعد يوم أحزان بالنسبة لمصر وللعرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه، فهو يوم الافتتاح الثانى لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة.

قبل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا، بل وأهانت وزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك الثانى.. ورغم أن أمريكا هى شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان وضع الرئيس فورد فى نظرهم ضعيفًا؛ لأنه لم يكن رئيسًا منتخبًا. ثم إن أمريكا مشغولة بفضيحة ووترجيت.. فلم لا تستغل إسرائيل الفرص كعادتها؟

وكان ردى على كل هذا هو الفعل لا رد الفعل، ففتحت القناة رغم أنها كانت تقع فى مدى المدافع الأمريكية الضخمة التى زودت بها إسرائيل وأعدت المهجرين إلى المدن الثلاث- بورسعيد والإسماعيلية والسويس- كانوا حوالى ٧٠٠ ألف إنسان كادوا أن يفقدوا آدميتهم أثناء الهجرة، ليس فقط للوضع الكئيب الذى كانوا يعيشون فيه بسبب ازدحام الوادى، بل لسبب أهم من هذا بكثير، فقد كانوا يعيشون بلا أمل.. والأمل أهم مقومات الحياة وبدونه لا يمكن للإنسان أن يكون..

كنت أعرف وأنا أفتح القناة أن مدافع الإسرائيليين تقع فى مداها هى والمدن الثلاثة؛ ولذلك أعلنت للعالم أن المدن الثلاث والقناة قد أصبحت فى عمق الجمهورية وأن العدوان عليها من جانب إسرائيل يعتبر عدوانًا على العمق ولا بد لى فى تلك الحالة من الرد فى عمق إسرائيل.

كانت هذه عملية مقامرة منى دون شك.. فقد كان فى الإمكان ألا تنصاع إسرائيل بعد ذلك بشهور وتقبل فض الاشتباك الثانى الذى خرجت به من مدى القناة ومدنها، ولكنى خاطرت من أجل السلام وكل شىء جائز.. المقامرة والصعاب بل والأخطار التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان فى سبيل السلام.

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندى.

على طريقة اليهود كل شىء له ثمن، فأخذوا يتفاوضون مع رجالى على الثمن الذين يستردون به موتاهم.. قلت لهم: «إن هذا عمل إنسانى لا نتقاضى عليه ثمنًا تعالوا خذوا قتلاكم».. وبكل تكريم عسكرى سلمتهم الجثث التسع والثلاثين بلا مقابل.. وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار الضباط.

وفى عام ١٩٧٧ ونحن نعمق مجرى القناة ظهرت ١٩ جثة أخرى للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها على الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم.

لماذا فعلت هذا؟ من أجل السلام.. فإنى أؤمن بأنه فى سبيل السلام يمكن، بل يجب أن يفعل الإنسان أى شىء لأنه لا شىء فى الدنيا يساوى السلام.

لا شىء فى الدنيا يساوى السلام



السادات وكارتر وبيجن

3 لقاء مع كيسنجر بعد فض الاشتباك الأول

كان لأمريكا دور فعال فى إعادة فتح القناة، فقد كانت تقف معى بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذى يفرض نفسه فرضًا.. ذلك الوجه الذى شوهته حرب فيتنام.. ففى عام ١٩٧٤ عندما قلت إننى سأفتح القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التى تصلح لمثل هذا الأمر لا توجد إلا فى البحرية الأمريكية وليس حتى فى الشركات الأمريكية ذات الميزانيات والإمكانات الفنية العملاقة.. قلت هذا لكيسنجر وكان فى زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - كان رده بسيطًا.. قال:

- هل أفهم من هذا أنك تطلب مساعدتنا؟

قلت: نعم.

قال لى: أعطنى ساعة زمن.

فى هذه الساعة- كما علمت- اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبنتاجون ثم عاد وقال:

- هل تقبل أن تدخل بورسعيد حاملة الطائرات الهليكوبتر «أيوجيما»- وهى من قطع الأسطول السادس وعليها الهليكوبترات ومعدات التطهير لكى تبدأ فى مساعدتك؟

إلى هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا وعلى مدى ثمانى عشرة سنة فى مواجهة مع أمريكا.. ولكنى قلت له: نعم.

اتصل كيسنجر مرة أخرى بالبيت الأبيض والبنتاجون وعاد ليقول لى: «بعد غد ستدخل (أيوجيما) ميناء بورسعيد لتتعاون معكم وتطهر القناة تحت قيادة البحرية المصرية».

بعض ضباط حاملة الطائرات وبعض الدبلوماسيين فى سفارة أمريكا بالقاهرة أشفقوا من دخول «أيوجيما»، فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية التى تحمى السواحل نيرانها على الحاملة، ولكننى طمأنتهم وقلت إن شيئًا من هذا لن يحدث، فقد أصدرت أوامرى إلى بحريتى.

فى الميعاد المحدد دخلت «أيوجيما» على استحياء ميناء بورسعيد وهى تتلمس خطاها فى كل مرحلة، ولكن فوجئ رجالها بالمقابلة الدافئة من جانب بحريتنا وبدأوا العمل فى الحال.

قد يذهب الشعب الأمريكى عندما يعلم أنى لم أتبادل مع الحكومة الأمريكية أى مستند بشأن اشتراكها فى تطهير القناة، ليس فى ذلك الوقت، بل وإلى اليوم.. ومن هنا أتوجه بالشكر إلى الشعب الأمريكى، فهذه هى روح الفروسية الأمريكية، وهذا هو الوجه الحقيقى لأمريكا.. فالقناة ليست لمصر فقط.. بل من أجل رخاء العالم كله.. وأمريكا بإمكاناتها العملاقة المفروضة بل والمتوقع منها أن تقف إلى جانب كل من يحتاج إلى معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم كله.

هكذا كانت صورة أمريكا وما زالت عندى وعند شعبنا المصرى العريق.. الذى دأب عبر تاريخ البشرية على احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها. وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike.



4 المبادرة التى أضاعتها إسرائيل ودفعت الثمن

لكفاحى من أجل السلام قصة طويلة تعود إلى تاريخ انتخابى رئيسًا لجمهورية مصر فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠، وبدء ولايتى الأولى فى ١٦ أكتوبر. فيوم أن توفى عبدالناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة، جاء للعزاء فيه السفير ريتشاردسون على رأس وفد أمريكى، وللأسف التقيت به فى ظروف مؤلمة.. ذلك أنه فى يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشيًا علىّ فأخذونى إلى أقرب مكان فى مجلس قيادة الثورة، حيث أعطانى الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات، وكان أول من وقع عليه نظرى ريتشاردسون الذى قدموه لى على أنه وزير الحكومة الأمريكية جاء ليقدم العزاء، فشكرته وأنا فى الفراش، ثم ضربت له موعدًا بعد ذلك، فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثًا طويلًا.

كانت مبادرة روجرز قائمة فى تلك الأيام فقلت لهم: «اعلموا رعاكم الله وانقلوا ما أقول إلى الرئيس الأمريكى.. لقد كنت ضد مبادرة روجرز وبالفعل رفضتها، ولكنى وافقت عليها بعد أن عاد عبدالناصر من الاتحاد السوفيتى وشرح لى الظروف هناك، فكل ما أريده هو السلام، دعونا إذن نعمل من أجل السلام معًا.. أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز، لكنى لا أرضى لأمريكا أن تنقاد لإسرائيل فى دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ فى الضفة الغربية للقناة.. ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هى أرضى.. مرة أخرى أدعوكم للعمل من أجل السلام.. وأنا مستعد للذهاب إلى أقصى مدى فى سبيل ذلك».

عاد ريتشاردسون إلى بلاده وقدم تقريرًا إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبقى فى الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع

وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله.. وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشىء. وبناء على هذا اتخذوا قرارًا فيما بينهم بأن ينتظروا حتى يروا مصيرى.. لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخرًا وكثيرًا ما أتندر به اليوم مع المسئولين فى أمريكا.

وفى نوفمبر ١٩٧٠ انتهت التسعون يومًا التى تنص عليها مبادرة روجرز، فجمعت مجلس الأمن القومى وقلت لهم إننا بحاجة إلى تسعين يومًا أخرى، ولكنها سوف تكون الأخيرة. فالمبادرة كانت تنص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يومًا، يعمل فى خلالها يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتنفيذ البند الثانى من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل.. بحيث يتم فى خلال التسعين يومًا الاتفاق على الانسحاب، وهذا ما لم تكن إسرائيل تريده.

تقدم وزير خارجيتنا إلى مجلس الأمن باقتراحنا وفعلًا تجددت مبادرة روجرز، ولكن انقضى نوفمبر وديسمبر ويناير ولم يحدث شىء، فإسرائيل تدعى أن مصر قد خرقت المبادرة وتسايرها فى دعواها أمريكا، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها.. وكل ذلك بهدف نسف المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك.

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أى بعد انتخابى رئيسًا بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزى، وكان فى ذلك الوقت رئيسًا للوزراء، يحيل إلىّ خطابًا من الرئيس نيكسون يشكر مصر؛ لأنها أوفدت الدكتور فوزى ليمثلنا فى جنازة أيزنهاور.

مباشرة استدعيت القائم على رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعته على خطاب نيكسون وقلت له: «لقد استدعيتك لأحملك الرد إلى الرئيس الأمريكى وهذا هو نص الرسالة:

أولًا: لقد أرسلت لكم مع ريتشاردسون الذى جاء للعزاء فى عبدالناصر، لكنكم لم تردوا علينا.. مبادرة روجرز انسقتم فيها وراء دعوى إسرائيل أن مصر قد نقضت المبادرة وأنتم تعلمون جيدًا أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية.

ثانيًا: بمجرد أنكم أرسلتم خطابًا لرئيس وزرائنا.. تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغى بهذا الشكر.. ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتى التى بعثت بها مع ريتشاردسون ولأقول لكم إذا كنتم تعتقدون أننا فى منطقة النفوذ السوفيتى فأنتم مخطئون.. نحن لسنا فى منطقة نفوذ سوفيتية ولن نكون فى منطقة نفوذ أحد أبدًا.. وأرجو أيضًا أن تعلموا أنه ليس لمصر ولى أمر، فإذا شئم أن تتحدثوا عن أى شىء خاص بمصر فالمكان هنا فى القاهرة ومعى.. لا مع أى جهة أخرى «وبهذه الجهة الأخرى كنت أعنى بصراحة كما أفهمت المشرف على رعاية المصالح الأمريكية السوفيت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا كان عبدالناصر قد أعطاهم هذ الحق فى مرحلة من المراحل»، وأرجو أيضًا أن تعلموا أن قرارنا بيدنا وحدنا، فنحن أحرار ومستقلون فإذا اقتربتم منا خطوة سنقترب منكم عشر خطوات، وإذا ابتعدتم خطوة سنبتعد عشرًا.. وكما أن فى القوانين الطبيعية لكل فعل رد فعل، كذلك شأننا معكم، فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح.

كان هذا أول اتصال لى بأمريكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التى حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أى صدى عندهم.. وجاء رد نيكسون على الفور وتعجبت للسرعة، فقد كنت إذا كتبت للسوفيت عن أى شىء لا يصلنى الرد إلا بعد أربعة أشهر على الأقل، وبعد أن أستدعى السفير السوفيتى عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور.

فى ٤٨ ساعة جاءنى الرد موقعًا عليه من نيكسون، وكانت رسالة رقيقة يشكرنى فيها الرئيس الأمريكى ويقول إنه لا يطلب صداقتنا على حساب أحد «وكنت قد حذرته فى رسالتى من هذا»، فهم يعلمون فى أمريكا أننى رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق فى أن تتكلم عن نفسها.

كان هذا فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضى ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يومًا الثانية لمبادرة روجرز تنتهى فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١، فقررت أن أفعل شيئًا قبل هذا التاريخ.. كان من الواضح أن أمريكا ما زالت تسير فى خط إسرائيل منقادة للدعاية الصهيونية، وأن أمريكا لظروف خاصة كانت تعطى إسرائيل أولوية حتى على مصالحها هى منذ حكومة جونسون.. ورغم رسالة نيكسون لى فقد كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجهة مع أمريكا والصورة التى صورها لنا السوفيت فى نظر الأمريكان أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأى إجراء يعيد السلام إلى المنطقة، وخاصة بعد أن استقر فى أذهان المسئولين هناك ما جاء فى تقرير المخابرات من أننى لن أبقى فى رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع.. صحيح أنه كان قد مضى على ولايتى أكثر من أربعة أشهر فى فبراير سنة ١٩٧١، ولكن الشك كان ما زال يخامرهم.. هل أبقى أو لا أبقى؟ هل أنا قادر على أن أفعل شيئًا أو غير قادر؟.

إزاء كل هذا كان لا بد من إنهاء مبادرة روجرز، ولكن فى نفس الوقت كان لا بد لى من أن أفعل شيئًا بناء يثبت لأمريكا ونيكسون والعالم كله حسن مقاصدى، فأنا أريد السلام ومستعد له وفى يدى أن أتخذ قرارًا فى هذا الشأن.. هكذا فكرت ولم أطلع أحدًا على تفكيرى إلا الدكتور محمود فوزى، رئيس الوزراء فى ذلك الوقت، فاستدعيته، وقلت له لقد قررت أن أتقدم بمبادرة سلام كالتالى:

أولًا: تنسحب إسرائيل من شاطئ القناة الشرقى إلى المضايق فى فترة ستة أشهر يأتى خلالها يارنج لكى يتفق معنا ومع إسرائيل على مراحل الانسحاب.. وبمجرد انسحاب إسرائيل إلى المضايق تعبر القوات المصرية إلى الضفة الشرقية.

ثانيًا: بعد أن يتم الإنسحاب إلى المضايق تعيد مصر علاقتها مع أمريكا فورًا فباعتبارها طرفًا أساسيًا فى المشكلة لا بد أن تحضر معنا كل مراحل التسوية.

ثالثًا: إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنتهى بموجبه حالة الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلى هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ مع إعطاء إسرائيل كل الضمانات التى ترغب فيها وتنتهى بذلك أخطر مشكلة يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها.

سعد الدكتور فوزى جدًا بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم كله وتثبت أن مصر ترغب فعلًا فى السلام.

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلى مجلس الشعب وألقيت خطابى وأعلنت المبادرة، وكما توقعت كان استعدادى لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة مذهلة للعالم كله.. فهذا ما لم يجرؤ قائد أو زعيم عربى أن يقوله منذ أن قامت إسرائيل عام ١٩٤٨.. ولكنى كنت أعنى ما أقول لأننى فعلًا راغب فى السلام.

دخلت بعد إعلان المبادرة إلى صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت تجهمًا غريبًا على وجوه المسئولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوى فى ذلك الوقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التى تركها لى عبدالناصر.. كانت المبادرة تتعارض طبعًا مع أهدافهم التى رسمها لهم السوفيت كما اتضح لى بعد ذلك. على أى حال لم يرق لى تجهمهم هذا، فقلت فى نفسى هؤلاء لا فائدة منهم ولن ألتقى بهم فى اجتماع آخر.

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة على طرف نقيض تمامًا من استقبال القيادة السياسية المصرية فى ذلك الوقت مضافًا إليهم بعض الوزراء.. ففى أقل من ٢٤ ساعة كان الشعب المصرى يهلل لهذه المبادرة من جانبى ويرحب بها كل الترحيب.. وهنا يجب أن أسجل أن حس الشعب أوعى بكثير وسابق عن كل مسئول عمل معى حتى هذه اللحظة وهو ما أعتز به.

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معى يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى ويدركها إدراكًا كاملًا.

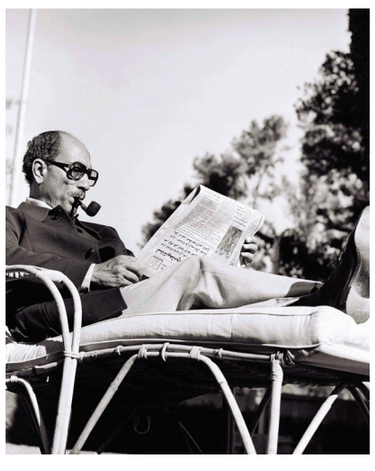
فى خطاب إعلانى لمبادرة السلام يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت إن التسعين يومًا تنتهى اليوم وبهذا تسقط مبادرة روجرز، ولكن ها هى مبادرتى أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله.. فيا عالم تحمل مسئولياتك وأنت أيضًا يا مجلس الأمن.. ويا أمريكا ويا سوفيت تحملوا مسئوليتكم جميعًا، إننى أعطيكم مهلة إلى مارس سنة ١٩٧١.. ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون مقيدًا بمبادرة ولا أى شىء.

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها فى مأزق يصعب الخروج منه فها هو أول رئيس عربى يعلن أنه على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل.. شىء لم يكن فى الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتى الحلم به.

وفى مصر لم تقم مظاهرات ولم يرتفع صوت بالاحتجاج أو الرفض أو التبرم، على العكس سعادة تامة تسود الناس فى كل مكان وفهم وإدراك واع وحصيف من الشعب كله.

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر ولبدأنا السلام فى فبراير ومارس ١٩٧١.

> أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معى يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى





استعدادى لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة مذهلة للعالم كله



5 الشماتة من العالم الخارجى وعملاء السوفييت فى الداخل



وضح لأمريكا أننى أتكلم من مركز قوة وأن شعبى كله ورائى، وأننى قادر على ما لم يجرؤ أى زعيم فى العالم العربى أن يقوله أو يفعله طوال اثنين وعشرين عامًا.. ولكن رغم هذا كله لم تفعل أمريكا شيئًا ولم تغير موقفها، واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن جاء مايو فاتصل بى روجرز وجاء لزيارتى فى ٤ مايو.. كان سعيدًا جدًا بمبادرة السلام التى قمت بها.. قال لى:

- أتعرف أنك أوجدت لنا حلًا للمشكلة؟

- سألته: كيف؟

فروى لى أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب وقالت له: «اكتب لروجرز ولنيكسون وقل لهما إننى أنا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أتحدى أى زعيم عربى أن يقول إنه على استعداد لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل فإذا حدث هذا- قل لهما- فسوف أكون على استعداد لكى أضع كل أوراقى على المنضدة، ثم استطرد روجرز يقول لى: لقد وصلتنا هذه الرسالة منذ فترة طويلة، فإذا بنا نفاجأ بك فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١- ودون أن تعرف ما قالت جولدا مائير- تعلن على العالم أنك على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أعجبنا بذلك كل الإعجاب ولذلك طلبت زيارتك.. والشىء العجيب أيضًا- استمر روجرز فى حديثه- أنه حسب التقارير التى عندنا كنت أتوقع أنى عندما أصل إلى مصر سوف يقذفنى الناس بالطوب.. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث على العكس نزلت الشارع بدون حراسة وعرفنى بعض الناس فحيونى وسلموا على.

قلت له: أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكى تعرفوا الشعب المصرى.. على أى حال ماذا تريد منى أن أفعل؟

قال: أبدًا.. لقد قلت كل شىء فى مبادرتك ونحن معك.. سأتوجه من هنا إلى إسرائيل وسأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدى.. حتى دون أن يعلم به.. ولذلك أرجو أن تكونى عند وعدك وتضعى كل أوراقك على المنضدة حتى يتسنى لأمريكا أن تدخل وتحل المشكلة.

غادر روجرز مصر إلى إسرائيل.. وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت من مراكز القوى الذين كانوا أغلبية فى القيادة السياسية المصرية وكانوا يستندون على الاتحاد السوفييتى وينفذون تعليماته فجاءنى «بودجورنى» يلهث فزعًا وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفييت.. وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات الصحف الغربية تعليقًا على زيارة بودجورنى وعقد المعاهدة المصرية السوفييتية أظهرت بودجورنى يستعرض طابورًا يلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن بودجورنى القائد يستعرض طابور الأصدقاء فى السجن..

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورنى قرر أن رسالتى لهم بشأن تصفية الصراع قد وصلتهم فإننى وافقت على إبرام المعاهدة المصرية السوفييتية

فى مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورنى سعيدًا.. ولم تستمر هذه المعاهدة إلا خمس سنوات فقط بدلًا من خمس عشرة سنة هى مدة المعاهدة وقد أنهاها البرلمان المصرى.

ولهذه المعاهدة قصة..

فبعد هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ووضوح دور جونسون رئيس أمريكا فى ذلك الوقت فى خداعنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبدالناصر بعد إغلاق خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧ فى وجه الملاحة الإسرائيلية على أن يرسل نائبه همفرى إلى القاهرة أو يرسل عبدالناصر أحد نوابه إلى واشنطن فبادر عبدالناصر بإخطار جونسون بأنه سيرسل له أحد نوابه إلى واشنطن لحل مشكلة مضايق العقبة، وكانت المشكلة قد شدت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلى الأسوأ واتفق رسميًا بين عبدالناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس المصريين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧ فى واشنطن وفى نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين على المبادرة بالهجوم على سيناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعى الأمريكى أوضاع القوات المصرية فى سيناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصرى إلى واشنطن فى ٧ يونيو ١٩٦٧، خاصة عندما عرض الإسرائيليون خطتهم عليه فى مكتبه بالبيت الأبيض بحضور رئيس الـ C.I.A وأحد القادة الكبار من البنتاجون..

وقد نفذت إسرائيل فعلًا كلام جونسون وهجمت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أى قبل وصول نائب الرئيس المصرى بيومين وطبعًا لم تتم هذه الزيارة.. لم يكتف جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضًا الخط الساخن مع القادة السوفييت وأكد لهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يخطروا عبدالناصر بذلك وقد استجاب السوفييت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها- لا أستطيع أن أجزم- ولكن ما حدث هو أن بادر السوفييت عقب اتصال جونسون بهم إلى الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه فى الفجر ليبلغوه على لسان سفيرهم فى القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأييدهم لها..

أعود إلى القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا فى ١٩٦٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلى الاتحاد السوفييتى ليبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من ٨٥٪ من أسلحتنا..

وكان طبيعيًا أيضًا أن نحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفييتى بأى ثمن.

وهناك حقيقة معروفة عن الروس سواء كان فى عهد القياصرة أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسى ذلك، أن الشك طبيعة ثانية فيه SECOND NATURE، وقد زاد هذا الشك تحت الحكم الماركسى بفعل طبيعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ البلشفية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة والشك المسبق فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس.. لذلك حرصنا للإبقاء على صداقتنا مع الاتحاد السوفييتى ومحو شكوكه الرهيبة بعدة أمور.. كان أولها أن طلبنا من السوفييت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربى الإسرائيلى بعد أن لمسنا شكوكهم من أى اتصال أمريكى بنا.. بل ووصلت الأمور إلى الحد الذى طلبنا إليهم تعيين قائد سوفييتى للدفاع الجوى المصرى وقائد لسلاح الطيران المصرى، أيضًا أمام عربدة إسرائيل الجوية فى أجوائنا ولكنهم رفضوا المطلبين لحسن حظنا..

وكان قمة ما أردنا أن نطمئنهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا تريحهم وتزيل شكوكهم «التى كنا نعجب لها» وتضمن لنا إمدادات الأسلحة التى نحن فى أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا..

عرض عبدالناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين، وسافرت أنا بتكليف من عبدالناصر إلى موسكو وطلبت أيضًا مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفييت لعبدالناصر ولى هو الرفض.. لعلهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلى ما لا يريدون.

وذهب عبدالناصر إلى آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو فى موسكو حين طلب إليهم أن يعقدوا معنا حلفًا PACT إذا كانوا يشعرون بأن فى ذلك مدعاة لراحة شكوكهم.. ورفضوا.. فما كان من عبدالناصر إلا أن أعلنهم فى هذه الجلسة وعلى مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال وغضب بريجنيف الذى قال لعبدالناصر فى انفعال إنك بهذا تقبل حلًا أمريكيًا فرد عليه عبدالناصر إننى أقبل أى شىء ما دام هذا هو أسلوبكم معى. لقد كان تعليق عبدالناصر لى يوم وصوله إلى القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة فى حياته إلى موسكو كلمتين قالهما لى بالإنجليزية. لقد قال لى وأنا أسأله فى طريقنا إلى منزله من المطار عما تم فى موسكو فلم يزد عن «السوفييت Hopeless Case» أى حالة ميئوس منها.

لذلك استغربت أن يأتينى بودجورنى رئيس الاتحاد السوفييتى إلى القاهرة فى أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لى فى نفس الشهر وبعد أن صفيت عملاءهم فى القيادة المصرية، أقول استغربت أن يأتى بودجورنى ملهوفًا على عقد معاهدة فورًا معنا.. وقلت له فى الحال أنا لا مانع عندى وقد طلبها منكم عبدالناصر مرتين فرفضتم، وعرض عليكم أيضًا حلفًا «PACT» فى زيارته الأخيرة لكم فرفضتم، وطلبتها أنا منكم كطلب عبدالناصر مرتين فرفضتم.. لا مانع لدينا ولكننى كصديق أنصحكم أن التوقيت الذى اخترتموه لعقد المعاهدة خاطئ جدًا ذلك أن الكل سيعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكأنهم كانوا هم الذين تعتمدون عليهم فى علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه.. ولهذا التنبيه أيضًا قصة..

فإننى حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفييتى فى القيادة المصرية وقبل أن تتم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفييتى فى القاهرة وطلبت منه أن يبلغ القادة السوفييت رسالة عاجلة منى ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أننى حرصًا على صداقتنا مع السوفييت أريدهم أن يكونوا على علم بها.. هذا الأمر هو أننى قررت تصفية على صبرى، وكان عميد عملائهم فى القيادة المصرية لأننى أسمح بالاختلاف فى وجهات النظر فى القيادة السياسية، ولكننى أرفض الصراع، ولذلك فإننى أريد أن يعرف الأصدقاء السوفييت بذلك قبل أن يقع حتى لا تستيقظ شكوكهم التى أعانى منها وحتى لا تهيج صحف الغرب أعصابهم..

ولقد حدث هذا فعلًا بعد أن أقلت على صبرى فقد خرجت صحف الغرب بالمانشيتات عن تصفية رجل موسكو..

بدأت صورتى فى نظر أمريكا حتى بعد عقد المعاهدة مع السوفييت تتخذ ألوانًا وأبعادًا لم تكن مألوفة لديهم من قبل ساعدتهم على المزيد من التعرف علىّ وفهمى على حقيقتى وهو الأمر الذى لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفييت الذين بيننا وبينهم معاهدة.. فهم منذ بدء علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف يتصرفون معنا بنفس الأسلوب الفج الفظ والذى يبعد كل البعد عن إدراك الحقيقة كما هى.. أو حتى مجرد محاولة الإدراك..

ولم يمض شهران حتى وقع تطور آخر سبب لى الصداع والصراع مع السوفييت فى يوليو ١٩٧١ قامت الثورة الشيوعية فى السودان، وعندما جاءنى السفير السوفييتى فى القاهرة يطلب منى الاعتراف بالحكم الجديد رفضت وقلت له: «أنا لا أسمح بقيام حكم شيوعى على حدودى، هذه نقطة، أما النقطة الأخرى التى أرجو أن تنتبهوا لها فهى أنه لن يقوم فى هذه المنطقة حكم شيوعى لأن الدين يجرى فى دمائنا، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط لكم فى هذا المجال حتى تريحوا وتستريحوا».

انصرف السفير السوفييتى فى حالة غضب وأكد موقفى هذا شكوكهم فى طبعًا..

نعود إلى موقف أمريكا- غادر روجرز مصر فى أوائل مايو ١٩٧١ إلى إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انقضى يونيو ١٩٧١ وجاء يوليو ١٩٧١ وأنا خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم على شئون أمريكا أطلب منه أن يكتب إلى روجرز ليخبرنى بما حدث مع إسرائيل.. ولكن دون جدوى تمامًا كما يفعل السوفييت معى.. إسرائيل مستمرة فى غرورها وأمريكا متحفظة لا تتكلم ولا تتخذ أى موقف.. إلى أن جاء ٦ يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال وزارة الخارجية الأمريكية يأتى من واشنطن يطلب موعدًا عاجلا للأهمية- قابلته فى مساء نفس اليوم فقال لى إنه يحمل رسالة من نيكسون وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد منى الإجابة عليها أولًا..

كان السؤال الأول: هل غيرت المعاهدة السوفييتية التى عقدت فى أواخر مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك فى التعامل معنا لإعادة السلام إلى المنطقة؟

وأجبته: أبدًا.. لقد أعلنت عن أن المعاهدة السوفييتية ليست لها بنود أو ملاحق سرية ولا بد أن تتعودوا أنتم وغيركم على أن ما أقوله فى العلن هو نفس ما أقوله فى السر، وأن أى التزام ألتزم به من حق شعبى علىّ أن يعرفه قبل غيره من الناس لأننى غير مستعد لأن أضحك على شعبى فى يوم من الأيام، ومهما كانت الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسميًا فى البرلمان عند إقرارها وليس على مصر أى قيود من أى نوع فنحن مصرون على حريتنا واستقلالنا..

وكان السؤال الثانى: هل ما زلت توافق على مبادرتك التى أعلنتها فى فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان فى مصر؟

قلت له: طبعًا.. ولو حدث أن غيرت أى شىء فلا بد أن أعلنه على الناس فورًا.. وأحب أن أنبهكم- وهذه ليست أول مرة- إلى أن كل ما يخص مصر يجب أن تتكلموا معى أنا فى شأنه.. فإذا تكلمتم مع أى شخص آخر ثقوا أننا لن نستمع إليكم..

قال لى: حسنًا.. حسب ما لدى من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما تلقيت منك هذه الردود فابتداء من منتصف الليلة ٦- ٧ يوليو ١٩٧١، فإن الرئيس الأمريكى سيتدخل بنفسه ليبدأ الحل السلمى..

قلت له: على خيرة الله.. ما الذى فعله روجرز فى إسرائيل؟

أجاب: تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك.. على أى حال أنا ليست عندى تعليمات بأن أقول شيئًا فى هذا الشأن.

وانصرف وانتظرت.. مضى نصف الليلة وأنصاف ليال كثيرة وكثيرة جدًا بعد ذلك ولكن لا حراك.. العكس حدث.. فقد وقفت جولدا مائير فى الكنيست الإسرائيلى تلقن روجرز درسًا عنيفًا.. ومبلغ دراستنا لشخصية مسز مائير أنها مولعة فى حياتها العادية ومع مجلس الوزراء الإسرائيلى بمعاملة الوزراء كما كانت تعلم الطلبة فى فصل المدرسة وهى تدرس للأطفال فى ميلووكى.. ويظهر أن كل ذنب روجرز هو أنه طالبها بأن تضع أوراقها على المنضدة كما سبق وأن أخطرته رسميًا عن استعدادها لذلك إذا أعلن أحد زعماء العرب عن قبوله توقيع اتفاقية سلام بينما كان يعلم تمام العلم أنها لم تكن مستعدة لذلك.

وكان لزامًا عليه أيضًا أن يدرك أنها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير الأمريكى فى تل أبيب كانت على ثقة من أنه لا يوجد زعيم عربى يمكن أن يدعو إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل.. ففيم كثرة الكلام إذن؟ وإلى أين سوف تؤدى سذاجة روجرز وجهله بحقائق الأمور بأمريكا وإسرائيل على السواء؟ كان هذا الدرس بمثابة إشارة إلى الدوائر الصهيونية فى الولايات المتحدة لكى تقضى على روجرز..

وبالفعل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولًا عزلًا تامًا..

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الرسالة التى وصلتنى يوم ٦ يوليو ١٩٧١ على لسان الرئيس الأمريكى ووزير خارجيته روجرز مع دبلوماسى أمريكى كان هو رئيس قسم مصر فى وزارة الخارجية لم يكن لدى الرئيس الأمريكى أى علم بها كما عرفت بعد ذلك.. شىء غريب حقًا.. أليس كذلك؟!

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير فى الكنيست عادت الأحوال بينى وبين أمريكا إلى أسوأ مما كانت عليه.. فقد كان للخطاب أثره فى الرأى العام الأمريكى كما أنه أرهب روجرز فتراجع عن كل شىء..

وليت روجرز اقتصر على التراجع بل إننا نجده فى أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة ودخلت معها فى عمليات تصنيع ولن تكف عن بذل المعونة لها حتى تظل متفوقة عسكريًا على العرب مجتمعين..

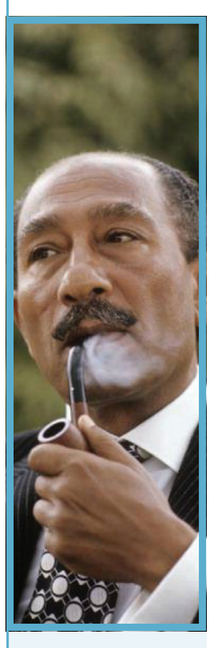
مسكين.. كان يريد أن يشترى رضاء إسرائيل مرة أخرى بعد الدرس الذى أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوى.

بعد تصريح روجرز وبعد عدم استطاعتى تحقيق وعدى بأن سنة ١٩٧١ لا بد أن تكون سنة الحسم إما سلمًا أو حربًا بدأت أعانى الشماتة فى العالم الخارجى وفى الداخل من عملاء السوفييت وبعض من ضللتهم الدعاية السوفييتية ومسلك أمريكا معى.. فها هى سنة ١٩٧١ تنقضى دون أى حسم ما.. لقد تعمد الاتحاد السوفييتى أن يخذلنى بعدم إرسال العتاد الذى طلبته وكأنهم فى موسكو يريدون أن يقولوا لى أنت لا تستطيع أن تقرر شيئًا بدون إذن السوفييت وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بسنتين للمارشال أحمد إسماعيل عندما زار موسكو فى مارس سنة ١٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة..

وتستمر سخرية عملاء الاتحاد السوفييتى وعملاء مراكز القوى عندى فى مصر من سنة الحسم وأضطر إلى أن أكتم آلامى وأخفى جروحى وأذهب إلى مجلس الشعب فى فبراير سنة ١٩٧٢ أدافع عن السوفييت رغم أننى مطعون فى ظهرى منهم فقد زرت موسكو فى سنة واحدة أربع مرات أطلب العتاد وألح فى الطلب ولكن عبثًا.. وفى نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلى مهاجمة أمريكا وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون.. وهكذا بدأ فصل جديد من العلاقات السيئة بينى وبين أمريكا.. مواجهة عاتية كاملة..

طبعًا أصيب الأمريكان بذهول يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت ولكنهم حاولوا جهد طاقتهم ألا يأخذ القرار مكانه فى إعلامهم.. فالوفاق بدأ.. وكان نيكسون قد زار موسكو فى مايو سنة ١٩٧٢ أى قبل شهرين فقط من قرارى بالاستغناء عن الخبراء السوفييت.. فكأنما كانت مؤامرة صمت..

ولكن يخطئ من يظن أنى اتخذت قرار طرد الخبراء السوفييت لإرضاء أمريكا أو أى جهة أخرى.. لقد كان قرارًا وطنيًا سعد به شعب مصر كل السعادة فهو قرارى وقرار شعبى وحده، وكان هجومى على روجرز وأمريكا لما لقيته من سلوك من جانبهم لا يقل عنفًا عما وجهته للسوفييت وأنا أطرد خبراءهم.



تعمد الاتحاد السوفييتى أن يخذلنى بعدم إرسال العتاد الذى طلبته



دافعت عن السوفييت فى 1972 رغم أنى مطعون فى ظهرى منهم





6 «إنكم مهزومون».. نصيحة كسينجر الصعبة

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيرًا للخارجية، فطلب أن يلتقى أى رسول أرسله له، ولكن سنة ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات والحكومة الأمريكية فى مثل هذه السنة لا تقدم ولا تؤخر، ثم إن الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن، فلم يتحقق لهذا اللقاء الذى طلبه كيسنجر أن يتم إلا فى فبراير سنة ٧٣.

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى عندنا فالتقى به فى باريس مرة فى فبراير سنة ١٩٧٣ وأخرى فى أبريل سنة ١٩٧٣.

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذى فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكى، ولذلك لم يتم شىء. ولكن الرئيس الأمريكى الآن مستعد للتعاون من أجل السلام.. قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدى روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا فى يناير سنة ١٩٧٢، فرد كيسنجر قائلًا:

– قل للرئيس السادات رغم أننى لا أعرفه شخصيًا فإن تقديرنا له الذى بنى على تقرير مندوب أمريكا فى جنازة عبدالناصر كان خاطئًا.. بل إن الحقائق كلها تشير إلى عكس ما جاء فى هذا التقرير.. فقد رأيناه يتقدم بمبادرة سلام، ثم رأيناه وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفييت..

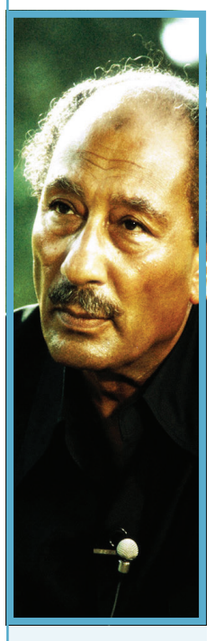
وهذه مسائل لافتة للنظر:

«ولكن نصيحتى للسادات أن يكون واقعيًا.. فنحن نعيش فى عالم الواقع ولا نستطيع أن نبنى شيئًا على الأمانى والتخيلات.. والواقع أنكم مهزومون، فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر.. لا بد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم.

«فكيف يتسنى وأنتم فى موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر.. إما أن تغيروا الواقع الذى تعيشونه فيتغير بالتبعية تناولنا للحل، وإما أنكم لا تستطيعون، وفى هذه الحالة لا بد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التى تعرضونها، وأرجو أن يكون معنى ما أقول واضحًا، فلست أدعو السادات إطلاقًا إلى تغيير الوضع العسكرى، فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد مما انتصرت فى سنة ١٩٦٧، وفى هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أى شىء.. وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصيًا، وهو رجل أحب أن أتعامل معه فى يوم ما.. فأنا شديد الإعجاب به لمواقفه وشجاعته الواضحة، ولأنه إنسان لأول مرة فى هذه المنطقة يضع كل شىء فى مكانه بأسلوب علمى سليم، ويتخذ خطًا جديدًا لم يتخذه أى زعيم عربى من قبله..».

كان هذا كلام كيسنجر فى فبراير وأبريل سنة ١٩٧٣، فقلت فى نفسى لا فائدة ترجى من الأمريكان، فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التى وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها. وكما يقول رجل الشارع عندنا فى مصر.. إسرائيل هى الحارس الوحيد على مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط.. هذا ما جعلت من نفسها.. أو هكذا جعلتها أمريكا.. والنتيجة فى كلا الحالين واحدة، وهى أنه لا أمل فى تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام.





أسجل للتاريخ أن الثغرة هى مسئولية أمريكا، بل مسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التى قدمها لإسرائيل

7 «أنقذوا إسرائيل».. إشارة عاجلة للخارجية الأمريكية

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، وفوجئ كيسنجر وحزن حزنًا شديدًا على مصيرى كما قال لى فيما بعد؛ إذ كان الإسرائيليون فى الأيام الثلاثة الأولى للحرب يؤكدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين، وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضى على المصريين ويدفنون فى القناة.

واستخدموا أفلام هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ فى كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلى الخارج.. وكأن «البروباجاندا السوداء ستجعلهم ينتصرون.

وفى اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة: «أنقذوا إسرائيل».. وأن إسرائيل خسرت على الجبهة المصرية ٤٠٠ دبابة مطلوب إرسالها فورًا من أمريكا لإسرائيل.

ولا بد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتمًا حينما أكد البنتاجون بأقماره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية.

وعلى الفور بدأ كيسنجر بعد أن أفاق من ذهوله فى العمل على وقف إطلاق النار على أن تعود القوات إلى المواقع التى بدأت منها القتال يوم ٦ أكتوبر.. طبعًا رفضت.. لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالاستيلاء الكامل على خط بارليف، ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهى الوصول إلى المضايق.

وساء حال إسرائيل أكثر.. فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية، ولكن سوريا كانت فى ذلك الوقت قد رجعت عن خط البدء فرفضت هذا أيضًا.. خاصة عندما قفز إلى ذهنى الموقف فى سنة ١٩٤٨ عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب، فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا على كل شىء.. كانت هذه حيلة مماثلة ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين.

أرسل الاتحاد السوفييتى لى ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضتها جميعًا.. ثم حضر رئيس وزرائهم كوسيجين إلى مصر وبقى عندنا أربعة أيام.. وفى يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفييتى إلى أمريكا يقول إن السادات قد وافق على وقف إطلاق النار.. وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية مستر هيث؛ لكى يتصل بى عن طريق السفير البريطانى فى القاهرة ليسأل عن مدى صحة الرسالة.. وفوجئت بالسفير البريطانى يوقظنى من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليبلغنى الرسالة.. قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط.

طبعًا كانت أمريكا تساند إسرائيل منذ بداية الحرب وقبلها..

ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلى تدخل واضح وصريح ومباشر.. فكانت الدبابات تنزل إلى أرض سيناء فى العريش المصرية عاصمة سيناء وهى التى تقع وراء الجبهة مباشرة وهى محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة.. كما كانت ثمة أسلحة أخرى لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها.

ووجدتنى فجأة أواجه أمريكا..

وهذا ما جعلنى أعلن على العالم يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أننى لا أحارب أمريكا.. وبناء عليه فأنا أقبل وقف إطلاق النار، وهو ما رفضته أربع مرات على مدى ١٧ يومًا عندما كان خصمى فى المعركة إسرائيل وحدها لا أمريكا.

وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هى مسئولية أمريكا، بل مسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التى قدمها لإسرائيل والصور الجوية والعتاد والأسلحة الجديدة التى استخدمت لأول مرة، ولم تكن متاحة لأى إنسان خارج أمريكا إلى ذلك التاريخ..

لم تكن الثغرة فى ذاتها هى التى جعلتنى أقبل وقف إطلاق النار.. الذى دفعنى إلى هذا كما سبق أن قلت إننى أصبحت فى حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا، وهو ما لا قبل لى أو لأى دولة غير عظمى به.

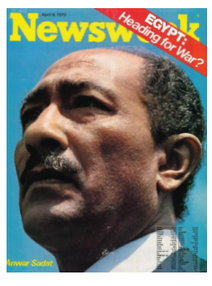
أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية، كما سماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية، ومن الناحية السياسية كان واضحًا أن الهدف منها هو إعطاء إسرائيل نقطة انطلاق حفظ ما تبقى من كرامة فى المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا على الجبهة المصرية إلى الحضيض BOTTOM، كما قالت مسز ماثير وقتذاك.. لقد حشدوا قوات كبيرة فى الثغرة فى منطقة صغيرة لا تحتمل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفنى هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة. طبعًا خاب ظنهم، فالحرب النفسية قد تصلح مع غيرى ولكنها لا تصلح أبدًا معى. لأننى أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عدتها.

كنت واثقًا كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكتوب لها الفشل المحقق.. فلو أنى صفيت الثغرة حسب الخطة الموضوعة التى وقعتها بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكرى بين قتيل وجريح، ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد.. فى هذه المعركة لم يكن أمامى قناة أعبرها أو خط بارليف أقتحمه.. العدو أمامى وعلى مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمس فرق كاملة لى ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هى ستة كيلومترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثانى والثالث.. كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبحة التاريخ.. ولكنها لم تتم.. لماذا؟ لأنها كانت ستعنى المزيد من الدم والكراهية والأحقاد. وأنا أكره كل هذا... بل إننى لأذهب إلى آخر العالم- كما يعرف شعبى وقواتى المسلحة- إذا كان ذلك من شأنه أن أتفادى جرح- ولا أقول قتل- فرد واحد.

8 «سيضربك البنتاجون بكل قوة».. سر الثغرة الملعونة



لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق المسدود



كان أول لقاء لى مع كيسنجر بعد وقف إطلاق النار الذى تم فى الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣.. وخرق إسرائيل وقف إطلاق النار بعد ذلك بساعتين فقط.. فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار، فأرسلت إلى القوتين نداءً أحملهما فيه مسئولية ما فعلت إسرائيل، وأعلن أننى رغم التزامى بوقف اطلاق النار إلا أننى أعتبر نفسى فى حل من التزامى، فإما أن يعيدا اليهود إلى خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو الخط الذى كان قائمًا وقت وقف إطلاق النار وتعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل على الأرض.. وإما أن أعيدهم أنا بيدى- كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلى مصر فقلت على الرحب.. وأتى..

كان ذلك فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولى ثلاث ساعات.. بعد الساعة الأولى شعرت بأننى أمام عقلية جديدة وأسلوب جديد فى السياسة، وأننى أرى لأول مرة وجه أمريكا الحقيقى الذى كنت فيما مضى أتمنى أن أراه - لا الوجه الذى صنعه دالاس ودين راسك وروجرز.. وأعتقد أنه لو رآنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الطاهرة لاعتقد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات.

لم تكن هناك أى صعوبة فى التفاهم فاتفقنا على النقاط الست، ومن ضمنها إقرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر فى إطار فض الاشتباك.

كان الاتفاق على النقاط الست بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمريكا تبلورت فيما نسميه بعملية السلام «PEACE PROCESS» التى سارت فيها أمريكا معى وما زالت حتى اليوم.

نفس هذه البداية اعتبرها السوفييت نهاية للعلاقة بينهم وبيننا- أو هكذا يبدو- على أى الأحوال كان الاتفاق على النقط الست بينى وبين كيسنجر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير- كما نقول فى العربية- بالنسبة للسوفييت، لقد تحملوا كارهين قرار طرد الخبراء السوفييت وتصفيتى لمراكز القوى ثم موقفى من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قرار الحرب وانتصارى فيها رغم تحذيرهم لسوريا بأنى سأغرق فى القناة بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهوا إسرائيل وحدهم.. فإذا بالأمور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطر مانع مائى فى التاريخ وأسيطر على خط بارليف فى ساعات وأدخل سيناء.. ولكن حتى فى هذه المرحلة المتقدمة لم يكف السوفييت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعة حين حضر إلى مصر رئيس وزرائهم كوسيجين- كما سبق أن رويت- ليقنعنى بوقف إطلاق النار، وحدثت بيننا مشادة فى منتهى العنف.. وأخيرًا كان اتفاق مع كيسنجر على النقاط الست وبداية عملية السلام.. منذ تلك اللحظة إلى هذا اليوم فى سنة ١٩٧٧ وكل شىء عند السوفييت موقوف عنى.. لا بيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت، ولا قطع غيار ولا أى شىء على الإطلاق.. بل موقف متشدد يكاد يصل فى بعض الأحيان إلى العداء.

فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءنى كيسنجر حسب الاتفاق لتنفيذ النقاط الست فقلت له: «يا هنرى أنا لا أطالب بعودة اليهود إلى الضفة الشرقية، ولكنى أريد عودتهم إلى خط ٢٢ أكتوبر- كان هذا اتفاقنا وقت وقف إطلاق النار، فإما أن يعودوا إليه وإما أن آخذه بالقوة».

قال: ما الداعى إلى المعركة؟

قلت: لأن ثمة عربدة إسرائيلية- وهم يتصورون أنهم يخيفوننا بهذه الثغرة- وأنا لست على استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر، بل لن أسمح بهذا.. هل تعرف مدى قوتى ومدى قوتهم فى الثغرة؟

قال: نعم أعرف.

وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعى رسمها البنتاجون.

كما سبق أن رويت.

وقال: قبل أن أحضر إليك طلبت من البنتاجون أن يعطونى الموقف فأعطونى هذه الصورة وفيها الـ٤٠٠ دبابة إسرائيلية ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقريبًا لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم.. أنت فعلًا تستطيع أن تصفى الثغرة بهذه القوات.

قلت: هذه سوف تكون معركة التاريخ بالنسبة إلى.. فما موقف أمريكا؟.. إنكم أنتم الذين أخرجتمونى من الحرب ولكنكم أنتم المسئولون عن الثغرة.. ما موقف أمريكا إذا صفيت الثغرة بمعركة؟

قال: سيضربك البنتاجون بكل قوته.. هذا هو موقف أمريكا.. ولكن لى سؤال: هل أنت مصر على تصفية الثغرة بمعركة عسكرية..؟

قلت: أبدًا.. أنتم تعلمون أننى رجل سلام.. ولو كنتم قبلتم مبادرتى سنة ١٩٧١ لما كانت هناك حرب، فأنا ضنين بحياة الجندى قبل الضابط، ولكنكم لم تأخذوا كلامى مأخذ الجد وهذه هى النتيجة.

قال: كما بدأنا عملية السلام، نعمل فض اشتباك تنتهى هذه الثغرة بمقتضاه سلميًا.

قلت له: أنا معك ١٠٠٪. ولكن متى؟

فى ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمر جنيف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأجل إلى ٢١ من الشهر نفسه، وفعلًا ذهبت مصر والأردن وإسرائيل، وامتنعت سوريا- وعقدنا فى جنيف جلستين أو ثلاثًا ثم أجلنا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر على فض الاشتباك فى يناير سنة ٧٤- وذلك بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية.

قبل ذلك بفترة- وعلى وجه التحديد فى يوم ١٦ أكتوبر بعد بدء المعركة بعشرة أيام، وبينما كان انتصارنا واقعًا أذهل العالم كله- خطبت فى مجلس الشعب هنا فى مصر وقلت إننى مستعد أن أذهب إلى جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧ ونجتمع فى جنيف لنضع اتفاقية سلام.. كان فى إمكانى فى ذلك الوقت أن أضرب فى عمق إسرائيل.. وهى تعلم ذلك وتعلم أن لدى السلاح الذى يقوم بذلك.

أى رجل مكانى كان يفعل هذا، ولو من باب الانتقام من إسرائيل لثلاث حروب مضت، ولكننى لم أفعل لأننى أفضل السلام، ومن نفس المنطلق آثرت أن أصفى الثغرة سلميًا فجاء كيسنجر حسب الاتفاق فى يناير سنة ١٩٧٤ وأخذ يتنقل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمن إلى أن جاء إلىّ فى يوم وقال: للأسف يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مغلق فهم فى تل أبيب غير راغبين فى التفاهم.

قلت له: لقد جاء دوركم أنتم الأمريكان.. فحلوا الموقف أنتم بأنفسكم.

قال: هل تقبل عرضًا أمريكيًا؟

قلت: بكل سرور.. مستعد أتلقاه وأدرسه وأرد عليك.

تلقيت الاقتراح الأمريكى وتلقته إسرائيل فى الوقت نفسه.. وبالاتفاق على فض الاشتباك الأول على الجبهة المصرية بدأنا مرحلة جديدة.. المرحلة الثانية فى عملية السلام.

وهنا لا بد لى أن أقول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يقوم بهذا الدور، وهو التدخل بين الطرفين اللذين تآكلهما أحقاد رهيبة ودماء وكراهية وعنف ومذابح قامت بها الصهيونية فى القرى الفلسطينية.

لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول، بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق المسدود.. وفض الاشتباك الأول مكتوب على رأسه كلمه «عرض أمريكى AMERICAN PROPOSAL».. لهذا قلت وأقول إن بيد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة.. مهما أغضب ذلك الآخرين.



9 إسرائيل تستغل «فضيحة ووترجيت» أسوأ استغلال

كان من المفروض أن ندخل المرحلة الثالثة من عملية السلام فى سبتمبر ١٩٧٤، وهى فض الاشتباك الثانى، ولكن حدثت زيارة نيكسون إلى مصر ثم عاد إلى أمريكا، حيث كانت مسألة ووترجيت قد نضجت تمامًا وتفجرت، فاستقال نيكسون ودخلت أمريكا فى دوامة رهيبة استمرت خلال سنوات ٧٤، و٧٥، و٧٦ سنة الانتخابات بعد أن استقال نيكون وحل فورد محله، وبدأت دبلوماسية «المكوك» بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثانى.

فى تقديرى أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلى عشرة أيام.. أما هذه المرة فقد كان الأمر مختلفًا.

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شىء يلوح فى الأفق.

وقبل أن تنتهى هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندى فى أسوان:

يا هنرى لن يتم فض الاشتباك هذه المرة، ولن يستجيب اليهود لكم ولا للسلام.. لأنهم يعلمون أن الحكومة الأمريكية فى حالة ضعف- فووترجيت ما زالت متفجرة- والرئيس الموجود معين وليس منتخبًا.

قال: بالعكس أنا أرى أن العملية تسير سيرًا حسنًا، صحيح أنها قد تستغرق وقتًا أطول من فض الاشتباك الأول، ولكن هذا لا يعنى الكثير.

قلت له: تقدر تقدم مقترحًا أمريكيًا يا هنرى؟

قال: لا..

قلت: أرأيت؟ أنت لا تقدر لأنكم فى وضع داخلى صعب.. ولذلك لن توافق إسرائيل.

بعد عشرين يومًا جاء إلى وقال: أنت على حق.. إنها حالة ميئوس منها.

قلت له: لا تعلن هذا من عندى، سافر إليهم وأعلنها من عندهم.

وفعلًا أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثانى فى مرحلته الأولى من تل أبيب، وفى نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعى كيسنجر فى مؤتمر صحفى عقده بأسوان، وفى صباح اليوم التالى سافر كيسنجر من عندهم رأسًا إلى أمريكا.

الذى أريد أن أقوله للشعب الأمريكى هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد من أمريكا إلى إسرائيل بكل ألوان الحياة من رغيف العيش إلى الفانتوم إلى سد العجز فى الميزانية، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه كان فى تقديرها فى ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية فى موقف ضعف.. فهى إذن ليست موضع ثقة إسرائيل- أنا أيضًا كنت أعرف أن الحكومة الأمريكية فى موقف ضعف.. ولكن رغم هذا ورغم أننى كنت قبل ذلك فى مواجهة صريحة كاملة مع أمريكا لمدة ١٨ عامًا.. إلا أننى كنت أثق فيها من أجل تحقيق الخير والسلام.

وهنا تتضح حقيقة لا أظن أنها تفوت على الكثيرين.. وهى أن ما هو معروف من أن إسرائيل هى راعية مصالح أمريكا فى المنطقة هو فى الحقيقة مجرد ادعاء.. فأين حماية هذه المصالح والبترول الذى حظره العرب كان يهدد كيان أمريكا الاقتصادى، بل يهدد المدنية الغربية كلها بالإنهيار؟ إن إسرائيل لا تنظر إلا إلى مصالحها الذاتية.. والمسألة بعد هذا أعمق وأدق فهى مسألة أخلاق.. ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عمن سيدفع ثمن فشل محاولات السلام.. وهذا ما دعانى رغم كل علاقاتى السابقة مع أمريكا أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل سويًا من أجل السلام.

هل يحتاج الأمر إلى عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف مصر فى تلك المرحلة التاريخية.. وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص على السلام أو العكس؟ لا أعتقد.



إسرائيل وهى ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئًا من أطماعها

10 إسرائيل عارية أمام العالم

أنا لا أريد أبدًا أن أثبت أنى رجل سلام بالكلام فقط، ولذلك فبمجرد خذلان إسرائيل لمساعى كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلى البرلمان وأعلنت للشعب كل ما حدث ثم تقدمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل، وإنما كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالحق، فأعلنت فتح قناة السويس فى ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع فى تطهيرها مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفييتى الذى طهر خليج السويس لوصوله متأخرًا.. وسمعنى شعبى وأمتى العربية والعالم أجمع.

كما سمعنى الجميع أعلن أيضًا أن المهجرين سيعودون إلى مدن القناة، وأنى سأسلم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلاها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أى ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكننى أعطيتها لهم بدون مقابل..

كل هذا من أجل السلام.. مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو ضربت أى مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية طويلة المدى فسوف أرد بالضرب فى عمق إسرائيل..

كنت طبعًا قد قابلت فورد فى سالزبورج «يومى ١، ٢ يونيو ١٩٧٥» بعد فشل محادثات مارس واتفقنا على عملية جديدة يتولاها فورد شخصيًا..

فى أغسطس جاءنى كيسنجر وبدأ «المكوك» بينى هنا وتل أبيب.. كان الرجل مكسور القلب.. فالوضع السيئ الذى كانت عليه الإدارة الأمريكية فى مارس أصبح أسوأ بكثير فى أغسطس.. فالفضائح تتفجر كل يوم والاضطراب وعدم الاستقرار مستمر.. واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم..

قلت له: كنت قد قلت لك فى مارس إن العملية لن تتم ولكننى أقول لك هذه المرة إنها سوف تتم.. فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين.. إلى آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلى المنطقة.. ولذلك فلو حاولت إسرائيل أى محاولة لإفشال السلام فستتضح الحقيقة للعالم كله وهى أنها وحدها المسئولة عن هذا..

وفعلًا لم تستطع إسرائيل إلا أن توافق، فوقّعنا فى أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ اتفاقية فض الاشتباك الثانى، وبذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام.

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة، فنحن الآن بصدد تسوية شاملة، أى اتفاق السلام النهائى وإنهاء حالة الحرب التى لا تزال قائمة إلى اليوم منذ ثلاثين سنة.. وعلينا أن نسعى إلى السلام الدائم العادل.. بعدما ثبت من أن مصر التى كانت فى مواجهة مع أمريكا لمدة ١٨ سنة تستجيب للسلام بينما إسرائيل وهى ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئًا من أطماعها.



11 زيارة إلى كارتر

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح فى الانتخابات وأصبح رئيسًا للولايات المتحدة.. واستعرضت معه كل المراحل التى تمت، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا أعتقد أن إسرائيل قادرة أو راغبة فى أن تصنع مثيلها أو شبيهة بها.

ما هى استراتيجية السلام التى وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم؟ قبل أن أدخل فى التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هى المشكلة الفلسطينية.. دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية، فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمرض أساسى هو هذه المشكلة بالذات.. ولعل مما يلفت النظر فى هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل.. تناقض غريب.. فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها- يطلبون من هؤلاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هى إسرائيل تتمتع باعتراف ١٤٠ دولة فى الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة وتأييد الاتحاد السوفييتى الذى لم يحاول قط إخفاء مساندته لإسرائيل وحقها فى أن لا تمس..

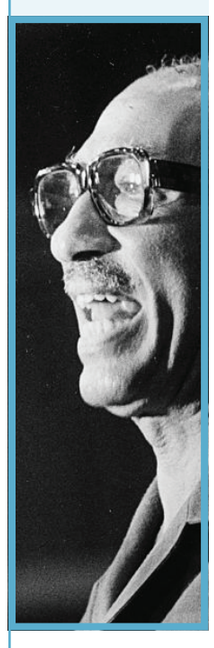
حتى إنه فى زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفييت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئى لحل المشكلة..

فى استراتيجية السلام الأولى التى أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها فى أن تعترف بها دول المنطقة.. ولكن بشرط أن يأخذ كل شىء وضعه الطبيعى.. فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين فى الضفة الغربية وقطاع غزة، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧.

وبذلك عندما نجتمع فى جنيف نعلن رسميًا إنهاء حالة الحرب التى استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة..

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطى جميع الضمانات التى تطلبها حتى إذا رأت أن تسلح كل مواطن فيها بدبابة وطائرة وأعطتها أمريكا هذا فلن نمانع.. بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس فى أرض الغير.. لن نمانع إطلاقًا فى أى شىء تطلبه إسرائيل سواء من أمريكا أو الاتحاد السوفييتى أو مجلس الأمن، وبأى صورة تطلبه.. قوة مشكلة من الأمم المتحدة.. قوات على الحدود.. مناطق منزوعة السلاح على الجانبين.. ميثاق دفاع مشترك مع أمريكا.. أقول إننى فى استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندى إطلاقًا.. ولكننى أرى أنه من الحق والعدل أن كل ضمان تأخذه إسرائيل يجب أن نحصل عليه نحن العرب أيضًا.. فيما عدا شيئًا واحدًا.. وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك فلن أطالب بالمثل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفييتى أو أى دولة أخرى.. فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك.. إرادتنا ملك لنا ولنا فقط..

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم فى سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتى فى ١٩٧١ بل وأكثر.. كما أكدت أننى على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التى يفرضها على قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن ولكن على إسرائيل أيضًا أن تفعل نفس الشىء.. فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المغتصبة فى سنة ١٩٦٧.. بهذا يتحقق السلام الدائم والعادل.



12 نظرية بن جوريون تحت أقدام الرجال

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا؟

كلنا يعرف نظرية الأمن التى نادى بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل، والتى تقول صراحة إنه لا بد من فرض الصلح على العرب بالقوة.. قلت لكارتر وأنا فى زيارتى للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلمًا لأن هذا معناه أن هناك طرفًا يملى شروطه على الطرف الآخر، وإسرائيل لم تستطع أن تملى شروطها علينا برغم هزيمة سنة ١٩٦٧ المنكرة، ونحن برغم انتصارنا سنة ١٩٧٣ لم نستطع أن نملى شروطنا على إسرائيل.. يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة..

لقد كانت أسطورة سقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكرى الإسرائيلى الذى لا يقهر.. وهذا ما يدركونه جيدًا فى إسرائيل اليوم، ولذلك تجدهم يكفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلى ويحلون محلها موضوعًا جديدًا هو طبيعة السلام..

ماذا يقصدون بطبيعة السلام؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع فى طريق السلام.. لأنه لا يوجد إنسان فى العالم العربى بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربع حروب ومذابح ودم وكراهية وتعبئة فى كل ناحية مهيأ لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخرى..

ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض؟ ونفس الشىء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية، فهى أيضًا لا تمنع قيام الحرب.. خذ مثلًا اليابان فى «بيرل هاربر» لقد كان السفير اليابانى فى زيارة «لكوردل هل»، وزير خارجية أمريكا، فى نفس الوقت الذى كانت اليابان تقصف فيه «بيرل هاربر» بالقنابل.

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسى مسألة سيادة، ولكل دولة الحق فى أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مع من تشاء من الدول دون أن يكون لهذا أى دخل فى قيام الحرب أو السلم.. وقد دعوت الرئيس كارتر إلى أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عامًا قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفييتى ولم يكن هذا يعنى أو يدعو إلى الحرب بين الدولتين.. ونفس الشىء بالنسبة للصين الشعبية فمستوى التمثيل الدبلوماسى بينها وبين أمريكا لم يزد إلى الآن عن قنصلية أو شىء من هذا القبيل مع أنه قد انقضى على ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة..

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهونًا بمثل هذه العلاقات، وهو الأمر الذى لم يكن فى يوم من الأيام بين أى دولة وأخرى كما يقول لنا التاريخ؟

إن طبيعة السلام التى تطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست فى الواقع إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام تهدف من ورائها إلى كسب الوقت لكى تتمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية فى الأرض العربية المحتلة.. كما تحاول الآن.. ثم على المدى البعيد لكى تنتهى أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا كما هو حادث الآن..

وفى هذه الناحية أدعو القارئ أن يعقد معى مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية..

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا فى المنطقة معنا نحن العرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا.. ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلى.. ونحن لا ننادى بأن ترمى إسرائيل فى البحر أو أن تقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها.. فلتعطها كما تشاء ولكن داخل حدودها.. ولن يؤثر هذا على علاقتنا بأمريكا بأى شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها تهمنا مصالحها، وأقرب دليل على هذا قرار رفع حظر البترول الذى اتخذناه عندما وجدنا أن الحظر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكى..

وهذا عكس ما تفعله وما فعلته إسرائيل فى كل مرحلة من المراحل.

فعلاقتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية، ويطلق عليها كلمة خاصة، لم تمنعها فى أى وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا فى سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلى أطماعها التوسعية بالنفع..

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيرًا وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالقدر الكافى، فأنا أحمّل أمريكا مسئولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام فى المنطقة كدولة عظمى، بل ونحو نفسها ومصالحها فى هذا الجزء الهام من العالم، وكل ما نطلبه من أمريكا وهى ترسم سياستها فى هذا الصدد شىء واحد وهو أن تفكر تفكيرًا أمريكيًا خالصًا يتفق مع مصالح شعبها، وأرجو أن لا يغضب منى القارئ الأمريكى لقولى هذا، فقد سلمت أمريكا فى أوقات متعددة نفسها وسياستها إلى إسرائيل، خاصة فى أيام جونسون- عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نفعل أى شىء- فتفاهموا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم.. وبمعرفتنا بخط إسرائيل وعجرفتها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام..

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جدًا بعد مقابلتى مع كارتر وواثق أنه سينهض بمسئوليته كرئيس لأعظم دولة فى العالم.. وأعتقد أنه سيستمر فى عملية السلام التى بدأناها سويًا، والتى أرجو أن تتم إن شاء الله فى جينيف برغم الحملات الإسرائيلية التى سيتعرض لها الرأى العام الأمريكى والكونجرس لمحاولة فرض شروط إسرائيل على العرب وهو ما لن نقبله.. فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف نقبله بعد انتصار أكتوبر وإثبات ذاتنا؟

بقى شىء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكى الصديق: نحن مستعدون للسلام، نريده ونرحب به، وقد مددت يدى فى مبادراتى منذ سنة ١٩٧١ إلى الآن.. كم أتمنى أن تفعل إسرائيل نفس الشىء.

قد أصبح أمرًا واضحًا كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتى التاريخية للقدس فى نوفمبر سنة ١٩٧٧.



13 خطاب بخط اليد والشمع الأحمر من كارتر

كيف تمت هذه الزيارة؟

قبل المبادرة بشهرين تقريبًا فوجئت برسالة من السفارة المصرية فى واشنطن تقول إنها تسلمت خطابًا خاصًا للرئيس السادات من الرئيس كارتر، وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر. فقلت لهم أرسلوه. ولكن السفارة لم ترسله فى الحقيبة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص «كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل على الذى يعمل بالسفارة هناك». قرأت هذا الخطاب الذى لا يعلم أحد عنه شيئًا، ويخيل إلىّ أن أحدًا لن يعلم عنه شيئًا فى المستقبل أيضًا، ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة، أى بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذى سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصيًا.

ربما تبادر إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلبًا من الرئيس كارتر لى بالقيام بهذه المبادرة. ولكن هذا غير صحيح. إذ إننى منذ أن زرته فى أبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتينا وأتبادل معه تقييم الموقف من وقت لآخر والاتفاق على الخطوات المقبلة. وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضًا مع بقية الأطراف، خاصة مع إسرائيل، «وقد علمت أثناء وجودى فى القدس أن ثمة (خطًا أحمر) بين الرئيس الأمريكى ورئيس إسرائيل».

ولكن رغم أن هذا الخطاب كان خطابًا شخصيًا لا يمكننى أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف، ويمثل فى الحقيقة بدء التفكير فى المبادرة التى حدثت بعد ذلك بشهرين.

كما قلت لم يطلب كارتر منى هذه المبادرة، فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزًا نفسيًا رهيبًا. ولا بد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته فى واشنطن أثناء زيارتى للولايات المتحدة فى أبريل ١٩٧٧، وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة.

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك.. وهذا ما يجعلنى لا أجد صعوبة فى التعامل معه. فأنا أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده.. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم، وإلى جانب هذا فهو فلاح مثلى. كانت رسالته تشتمل- كما قلت- على استعراض للموقف وكان ردى عليها بنفس الروح التى تسود تعاملنا. ومع ذلك فقد فتحت رسالته لى طريقًا جديدًا كل الجدة.. لماذا؟

بعد أن أرسلت ردى أخذت أتأمل الموقف، فتبين لى أننا داخلون على حلقة مفرغة رهيبة، تمامًا كالتى عشناها طوال الثلاثين عامًا الماضية. إذ إنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسى الرهيب الذى أشرت إليه، أخذت إسرائيل فى هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تعترض على شكليات وإجراءات، من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة فى النص إلى كلمة مضافة أو كلمة محذوفة، وكان يهمها جدًا أن يقال إن ورقة العمل التى ستكون أساسًا لاجتماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية..

وأخذنا نحن العرب أيضًا بسبب ذلك الحاجز الرهيب نعترض بصورة تلقائية على هذه الشكليات، فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إننى إذا قبلت من ناحيتى ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخوانى العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية «مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا»، وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابتعدنا عن جوهر القضية.

والحاجز النفسى الذى أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكراهية بل وسوء الفهم، إذ إن كلًا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهيأ نفسيًا لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا «بل ويشك فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر».

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجانى الضخم عند أستراليا، والذى يمكن أن يشطر أى سفينة تقترب منه شطرين.

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عامًا- أى منذ قيام إسرائيل- فإن له جذورًا أعمق من هذا التاريخ، أى أنه إذا كان بيجين يدعى أن للمسألة بعدًا دينيًا بالنسبة لهم فإن لها بعدًا دينيًا أيضًا بالنسبة لنا.. وهكذا. بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة وعكفت على دراسته دراسة ذات عمق جديد.

وهنا وجدت ما تعلمته فى الزنزانة ٥٤ فى سجن مصر يمدنى بقوة جديدة وطاقة جبارة على التغيير. إننى أواجه واقعًا بالغ التعقيد يحتاج إلى طاقات نفسية أولًا وفكرية ثانيًا لتغييره، ولقد تعلمت أثناء تأملى للإنسان والحياة فى ذلك المكان المنعزل أن من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولًا لن يستطيع أن يحدث أى تغيير فى عالم الواقع، ومن ثم لن يستطيع تحقيق أى تقدم. التقدم مستحيل دون التغيير. وليست هذه مجرد فكرة اهتديت إليها، بل أسلوب عمل وديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتى فى الزنزانة ٥٤.

ماذا يمكننى إذن أن أغيره؟ لقد درجنا على اعتبار إسرائيل موضوعًا مشحونًا بحساسية وخطورة إلى الدرجة التى تحرم الاقتراب منه. بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتى بلغت التراكمات حدًا يصعب معه التغيير إن لم يكن يستعصى فعلًا، تمامًا مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب. وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلى التغيير لا بد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها. فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام الدائم فلا بد لنا من أسلوب جديد تمامًا، أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتى لا نعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود.

هذا من ناحية. نظرت من ناحية أخرى إلى موقف أمريكا. ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل؟ كان لا بد من بحث هذا الموضوع على أساس حقائق الحياة، وأولاها أن قدرة الرئيس كارتر على الحركة مرهونة بالوضع العالمى الراهن. وثانيها أن قدرة أمريكا على المساعدة لا يمكن أن تتخطى طبيعة علاقتها الخاصة بإسرائيل. إذ إنه من غير المعقول أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلى جوارى ضد إسرائيل. أعلم أن هذا غير ممكن، وتأكدت منه أثناء مباحثاتى فى واشنطن فى أبريل ١٩٧٧.

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطالب به الرئيس كارتر هو انتهاج خط سياسى أمريكى، أى موقف يتسق أولًا مع مصالح أمريكا ويتسق ثانيًا مع مسئولية الولايات المتحدة كقوة عظمى مسئولة عن السلام فى العالم. ومعنى هذا وضع حد لسياسة «الكارت بلانش» التى أعطتها إدارة جونسون لإسرائيل، أى أن تعطيها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت.

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التى أتت بها حرب أكتوبر إلى العالم، وأولاها أن العرب ليسوا جثة هامدة بل قوة قادرة على القتال وهزيمة إسرائيل فعلًا «ولعل النداء، نداء (أنقذوا إسرائيل) الذى صدر فى اليوم الرابع للقتال أكبر برهان على هذا»، وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول- عصب المدنية فى الغرب- لأول مرة وبكفاءة عالية.

«وهنا لا بد أن أذكّر الشعب الأمريكى أنه بمجرد أن شعرنا بأن حظر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكى رفعناه فورًا لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكى أو الغربى بل التنبيه بأن الانحياز الأعمى لإسرائيل له ثمن.. فللغرب مصالح مثلما لنا مصالح ولنا قضية وينبغى أن يعود الغرب إلى رشده ويتبين أين مصالحه ومصالحنا».

وهكذا- بالنسبة للمبادرة- كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل البؤرة التى تجمعت عندها خيوط تفكيرى بعد أن تلقيت رسالة كارتر.

وفى نفس الوقت استقبلت مبعوثًا من الرئيس حافظ الأسد، فوجدته لا يزال يردد نفس العبارات التى سادت العالم العربى سنين طويلة، والتى تفصح عن العقد التى تتحكم بموقف الجانبين! قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلى حل، وإنها تلعب على الوقت «وهذا صحيح» وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتى لو أرادت فإنها لن تستطيع. وهنا أبديت اختلافى مع هذا الرأى وقلت للمندوب السورى إن الرئيس كارتر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت على ذلك بواقعة فض الاشتباك الثانى عندما كان رئيس الولايات المتحدة معينًا وغير منتخب وكانت أمريكا لا تزال تعانى فضيحة ووترجيت. وقد بدأت أيضًا تدخل دوامة الانتخابات القادمة- أى إن الإدارة الأمريكية كانت فى أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثانى لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم. فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر؟

استمر تفكيرى فى الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسيدًا ووضوحًا. فإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور فى أعماق ذاتى داخل الزنزانة ٥٤ وإيمانى بأنه لا يمكن إحداث التغيير فى عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير فى عالم أفكاره- وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبى- تلك المسئولية أو الأمانة التى أحملها بالنسبة لجيلنا وبالنسبة للأجيال المقبلة- تفرض علىّ أن أقوم بما ينبغى أن أقوم به دون اعتبار لكرسى الحكم.

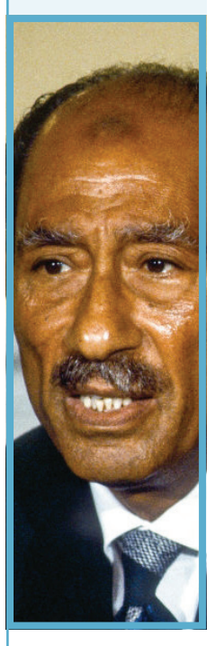
لا بد أن أؤدى واجبى كما ينبغى وإذا كان فى إمكانى أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التى ورثناها- إذا كنت أستطيع ذلك ثم تقاعست عنه- فأكون قد أخطأت أمام نفسى وأمام الله الذى سوف يحاسبنى على كل ما أفعل.



من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولًا لن يستطيع أن يحدث أى تغيير فى عالم الواقع



14 زيارة إلى رومانيا وإيران والسعودية.. واجتماع مع حافظ الأسد



انتهت هذه المرحلة من تفكيرى قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين، بعد أن تسلمت رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتى إلى كل من رومانيا وإيران والسعودية.

وعندما وصلت إلى رومانيا تحدثت مع شاوشيسكو طويلًا فأخبرنى عن اجتماع كان قد عقده مع مناحيم بيجين رئيس وزراء إسرائيل، واستمر ثمانى ساعات «ساعتان ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما على انفراد». سألت عن انطباعاته فقال لى:-

- إن بيجين يريد التوصل إلى حل.

قلت له:

- كل ما يشغلنى فى هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقًا أم لا؟.. أنا عن نفسى أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالًا للشك عند أحد. لكن هل إسرائيل اليوم- وخاصة بيجين زعيم كتلة ليكود المتعصبة- تريد السلام؟ هل بيجين الذى يسلك هذا النهج المتطرف رجل يريد السلام؟

فقال لى:

- دعنى أقرر لك إنه بالقطع يريد السلام..

كان شاوشيسكو بالغ الثقة وأنا أثق فى حكمه. وإلى جانب هذا فهو على صلة طيبة بالإسرائيليين لم تنقطع يومًا ما. ولذلك فحينما أكد لى أن بيجين يريد السلام وأنه «رجل قوى» كان ذلك بمثابة التأكيد على ما شعرت به أولًا من الحاجة الملحة إلى التغيير.. والتغيير من الجانبين. ولذلك عندما ركبت الطائرة فى طريقى إلى إيران- وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا- وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامى.. كان معى فى الطائرة وزير الخارجية فقط الذى لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال.. مسكين.. قلت له إننى أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر وبريجنيف وديستان وكالاهان وهوا كوفينج إلى اجتماع فى القدس.. فى الكنيست.. لماذا؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغى أن نضغط مرحلتين فى مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لمؤتمر جنيف أن ينجح فلا بد من التحضير له تحضيرًا كاملًا.. وقد حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التى اقترحتها والتى تقدم بها فانس، وزير الخارجية الأمريكية، ولم تلق أى استجابة نتيجة لنفس الموقف الذى ساد بين العرب والإسرائيليين، نفس الشكوك ونفس الحذر.. ونفس الدائرة المفرغة.. لا بد إذن من تحضير يتخذ صورة أخرى. وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار- أصحاب الفيتو فى مجلس الأمن- إلى اجتماع فى القدس، وأن أدعو معهم الأطراف المعنية فى العالم العربى، أى دول المواجهة- سوريا والأردن ولبنان وفلسطين ومصر- بحيث يعلم بيجين أننا قد عقدنا العزم على التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف، وأننا بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية «Headlines» حتى نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام.

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لى كى أصلى العيد مثلًا «أو الجمعة» فى المسجد الأقصى ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية.. فنقوم معًا بزيارة لهذه الأماكن المقدسة- أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وكذلك هوا كوفينج الذى قال ماو تسى تونج عنه لحسنى مبارك إنه رجل ممتاز وقال له وهو على فراش موته: الراجل ده كويس جدًا وأنا بازكيه لكم وللدنيا كلها. «وكانت هذه آخر وصية له»- أما بريجنيف فلم أكن واثقًا أنه سيقبل رغم أنى أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذى يتمتع بعقلية سياسية فى القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقًا. وإنما كان الخلاف دائمًا مع زملائه الآخرين والموظفين.

كانت هذه هى الصورة الأولى لمبادرتى، كنت واثقًا من ترحيب أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وهوا كوفينج، وكان تصورى أن بريجنيف لن يجد مفرًا من القبول إزاء ترحيب هؤلاء. ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعًا نحن الأطراف المعنية فى الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف حتى نجعل إسرائيل تعلم- فى القدس نفسها- أنه لا فكاك لها من العنصرين الأساسيين فى التسوية وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التى هى لب القضية.

اكتملت صورة هذه المبادرة فى ذهنى، ومضيت فى رحلتى فزرت إيران والسعودية ولكننى لم أخبر أحدًا بها. وذلك حتى لا أورط أحدًا من أصدقائى فيها. لقد أردت أن أتحمل مسئوليتها بالكامل. وعندما عدت إلى القاهرة بدأت أحس أن صلاة العيد أفعل فى النفس من صلاة الجمعة وربما كان العيد مناسبة رائعة للقاء أهلنا فى الأرض المحتلة..

كانت المشكلة أن الوقت ضيق إذ كان بيننا وبين العيد أيام معدودة ولم يكن من الممكن ترتيب زيارة الخمسة الكبار ومعرفة مدى ملاءمة مواعيدهم فى نطاق هذا الوقت الضيق.

وهكذا تغيرت صورة المبادرة فى ذهنى وبدأت تأخذ شكل الزيارة التى أقوم بها شخصيًا لأصلى العيد فى المسجد الأقصى تحقيقًا لما قلته من أننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم لتحقيق السلام. لقد قلت إننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم فى سبيل السلام فكيف أستثنى إسرائيل؟ أنا أعنى ما أقول دائمًا وأتحمل مسئولية الكلمة.. ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلى الكنيست ممثل الشعب هناك لأضع أمامهم حقائق الموقف كاملة، وأضع على عاتقهم مسئولية الاختيار والعمل إذا كانوا يريدون حقًا العيش فى سلام فى هذه المنطقة.

قبلت هذه الصورة المعدلة للمبادرة وتبلورت تمامًا فى ذهنى وقررت أن أعلنها فى خطبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب. وفعلًا أعلنت عن أننى مستعد للذهاب إلى آخر العالم بما فى ذلك إسرائيل إذا كان من شأن ذلك أن يجنبنا جرح «ناهيك عن قتل» جندى أو ضابط واحد.

أعلنت عن أنى أعنى ما أقوله تمامًا وأننى على استعداد للذهاب إلى الكنيست إذا كان هذا سيحقق أهدافنا أمام الجميع وكان جميع الوزراء حاضرين ومعهم ياسر عرفات. كان رد الفعل المباشر مضحكًا إذ تصور البعض أنها زلة لسان ولم يعلموا أن وراءها تفكيرًا طويلًا عميقًا.. فما زال البعض يتصور كما هى العادة أن يقول السياسى كلامًا لا يعنيه.. وهذا لا يمكن أن أفعله.

وقد حدث قبل أن أتجه إلى مجلس الشعب لإلقاء خطابى أن اتصل بى الرئيس حافظ الأسد ليذكرنى بالوعد الذى كنت قد أعطيته إياه بأن أزوره فى الصيف ونجتمع فى اللاذقية. وهنا قلت له إننى سآتى على الفور.. وفعلًا.. سافرت إلى سوريا واجتمعت مع الرئيس الأسد الذى سألنى:-

- هل تعنى ما قلته فى خطابك بالنسبة لزيارة القدس؟

فأجبت:

- نعم.. أنا لا أقول شيئًا لا أعنيه..

فتساءل:

- ولكن كيف يتم ذلك؟

واستمرت مناقشاتنا أربع ساعات كاملة قلت له بعدها:

- اسمع يا حافظ.. لو ثبت أن هذه آخر مهمة أقوم بها كرئيس جمهورية فسوف أقوم بها وأعود لأقدم استقالتى إلى مجلس الشعب فى مصر كما ينص الدستور. أما أنا فمقتنع مائة فى المائة بإتمام هذه المبادرة.

انفصلنا بعد هذه المناقشة الطويلة التى لم يقنعنى فيها ولم أقنعه كما أعلنت ذلك فى مؤتمر صحفى لم يحضره الرئيس الأسد ثم عدت مباشرة إلى الإسماعيلية، حيث جاءنى السفير الأمريكى حاملًا الدعوة الرسمية لى من بيجين. كان ذلك يوم الخميس فقبلتها على الفور وحددت يوم السبت موعدًا لسفرى وقمت بإعداد الخطاب الذى سألقيه.

وهنا أحب أن يعرف الناس أن وزير خارجيتى خاف من هذه المبادرة. فعندما كنا نستعد للسفر إلى سوريا اعتذر كتابيًا عن مصاحبتى بسبب المرض، فقلت لا بأس.. يمكنه أن يصاحبنى إلى إسرائيل.

ولكن نائب رئيس الجمهورية شرح لى الأمر بعد ذلك، وهو أن الوزير معترض على المبادرة كلها من أساسها. وإزاء هذا قلت له إننى لا أكلف أحدًا بأن يفعل شيئًا غير مقتنع به. ثم قبلت استقالته.



15

وجهًا لوجه أمام جولدا مائير

وصلت لإسرائيل فى أقل من أربعين دقيقة استغرقتها رحلة الطائرة من مطار أبوصوير فى القناة إلى مطار اللد. لا أحد يصدق والذهول يسود. بمجرد أن خطوت خارج الطائرة وجدتنى وجهًا لوجه أمام جولدا مائير التى كانت فى أمريكا ثم قطعت رحلتها وعادت. بادلتها السلام. ثم رأيت ديان.

ديان أنا أعرفه لأنه كان خصمى فى معركة ١٩٧٣. ثم قابلت أبا إيبان وبعده إريك شارون الجنرال الذى كان لدينا فى الثغرة- قلت له إذا أتيت مرة أخرى إلى الضفة الغربية للقناة فسيكون السجن فى انتظارك! فقال: أبدًا.. أنا حاليًا وزير الزراعة!..

ثم رأيت بعد ذلك موردخاى جور رئيس الأركان الحالى الذى كان قد حذرهم قبل زيارتى بأننى أقوم بخدعة، وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم وشيك. ولذلك حينما رأيته قلت له إننى لا أمارس الخداع الأخلاقى مطلقًا.. الخداع الاستراتيجى والخداع التكتيكى مقبول ولكننى لا يمكن أن أقبل الخداع الأخلاقى.

بعد ذلك ركبت السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعى ممتاز. وصلت إلى القدس الإسرائيلية ونزلت فى فندق الملك داود.

فى الصباح خرجت لصلاة العيد. دخلت القدس العربية لثانى مرة بعد ٢٢ سنة كاملة «كانت المرة الأولى عندما كنت وزير دولة وسكرتيرًا عامًا للمؤتمر الإسلامى». وتبين لى على الفور أن المسجد الأقصى قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق الذى اجتاحه عام ١٩٦٩ قائمة.. وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تمامًا، وأن عملية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من جديد على أيدى المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلى الفندق.

بعد الظهر اتجهت إلى الكنيست وألقيت خطابى، ثم قام بيجين بإلقاء خطاب مضاد وتلاه زعيم المعارضة بيريز وانتهت جلسة الكنيست. رغم التعب والإرهاق الذى كابدته ذلك اليوم فقد أحسست بسعادة غامرة لأن ابنتى كما علمت كانت قد رزقت مولودة «بنت» فى الثامنة صباحًا وأنا أصلى فى المسجد الأقصى.

لم يكن سبب الإرهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم به- ولكن كان السبب الحقيقى هو التركيز الذهنى العميق إلى أبعد الحدود والذى يجعل الإنسان يحس بالتعب. كان ذهنى بالغ التركيز لسبب بسيط، وهو أننى كنت أعتبر هذا المهمة مهمة مقدسة حقًا وصدقًا. ورغم ثقتى من تأييد شعبى لى فقد كنت مستعدًا إذا أبدى أى رفض من جانبه أن أتوجه إلى مجلس الشعب عندنا وأقدم استقالتى.

ولكن ثقتى لم تخب. فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين الثمانية الذين يعيشون فى القاهرة لاستقبالى عند العودة. كانت مظاهرة تأييد لم يسبق لها مثيل. كان الجميع فى قلق علىّ، وكانوا يرون أنها مجازفة منى أكثر منها شجاعة. ولهذا كان الجميع يلهجون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحهم الغامرة. كان إحساسى بهذا هو قمة السعادة ويأنى قد كلفت تكليفًا لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل الذى بدأته.. كان تكليفًا بأن أخدم شعبى وأهلى حتى نحقق سويًا الهدف من المبادرة.

ولا بد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلى النتيجة أن الرئيس جعفر نميرى زارنى فور عودتى وأبدى تأييده الكامل تمامًا مثلما زارنى فى أعقاب ثورة التصحيح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١.. إنه موقف لا يسعنى إلا أن أذكره له ولشعب السودان الشقيق.



السادات وكارتر وبيجن

16

ماذا كانت حساباتى؟.. وهل تحققت؟

كنت قد قدرت أن تؤدى رحلتى إلى كسر الدائرة المفرغة، الحلقة التى ظللنا ندور فيها سنين وسنين.. وأنا أضع دائمًا لكل شىء حساباته الدقيقة «تمامًا مثلما فعلت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣» وقد صدق ما حسبت له. إذ إنه مثلما استقبلنى شعبى هذا الاستقبال الرائع المذهل كانت استجابة الشعب والناس فى إسرائيل- النساء والأطفال والشيوخ- استجابة مذهلة. حتى القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التى كلفت بحراستى كانت ترقص فرحًا وتحية لى رغم أننى حاربتهم فى ١٩٧٣ وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلًا طوال ٣٠ عامًا.. لماذا؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذى يستطيع بعد النصر أن يقول لهم فلتكن حرب أكتوبر آخر الحروب، ولنجلس معًا مثل كل المتحضرين حول المنضدة لنناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلًا من اللجوء إلى القوة.

عدت من إسرائيل بعد أن اتفقت هناك على شيئين أساسيين:

أولًا: أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب..

وثانيًا: أن نتناقش حول منضدة المفاوضات فى موضوع الأمن لهم ولنا..

وهكذا اتجهت إلى مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع تقريبًا «إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين الـ٣٦٠ عضوًا».. مما زادنى سعادة ومن ثم فكرت فى أن أعود إلى القناة كى أنال قسطًا من الراحة. ولكننى ما لبثت أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلى مؤتمر القاهرة حتى لا تضيع قوة الدفع. وفعلًا أرسلت الدعوات إلى جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلى جنيف. لم نتلق إجابات إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل، ولم يرسل باقى الأطراف إجاباتهم ولكننى مصمم على المضى فى مبادرة السلام إلى النهاية.

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهور؟ لا أدرى. ولكن الذى أدريه هو أننى أولًا سأظل متمسكًا بمبادرة السلام التى قمت بها.. وثانيًا: هو أننى لن أضيع فرصة على الإطلاق لكى نحل مشكلة السلام فى الشرق الأوسط حلًا جذريًا وحضاريًا. وهنا أريد أن أردد ما قلته أمام الكنيست الإسرائيلى من أننى لا أبغى اتفاقًا ثنائيًا من أجل سيناء «فهذا لا يحل المشكلة» ولكن سلام قائم على العدل وسوف أعمل فى الفترة المقبلة- إلى أن يصدر هذا الكتاب وبعده- على إقامة سلام عادل فى المنطقة بإعادة الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو- كما قال كارتر معى- وطن قومى فلسطينى.

بطبيعة الحال لا بد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربى لهم «سيناء مع مصر والجولان مع سوريا والضفة الغربية مع الفلسطينيين» ولكننى سأستمر فى المناقشة إلى النهاية- حتى ولو عارضنى العالم كله.

هدفى الأساسى إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والجلاء عن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، وسيكون رائدى دائمًا أننى أريد السلام القائم على العدل وأنا مستعد لأن أبذل فى سبيل ذلك كل شىء مهما طال الزمن.

أما إذا كان الأمر أمر فرض إرادة طرف على طرف آخر فلا بد أن أقول إننى مثلما أعلنت عن استعدادى للذهاب إلى آخر العالم فى سبيل السلام، فأنا أعرب عن عزمى على أن أحارب إلى آخر العالم فى سبيل هذا الهدف.

لقد فقدت أخى الأصغر الذى كان بمثابة ابن لى بعد خمس دقائق من بدء معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصابين فى تلك الحرب- شبانًا فى عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدين إلى كراسى ذات عجلات. ولقد رأيت حالات مماثلة فى إسرائيل وتألمت لها ألمى لكل من نالت منه ويلات الحروب.. أيًا كان.. ولعل هذه الروح هى التى ساعدتنا على تأكيد الهدفين اللذين تحددا فى زيارتى وهما أولًا ألا تقع حروب بعد حرب أكتوبر وثانيًا أن نحقق الأمن للطرفين.

ولا بد فى النهاية أن أسجل أن الشعب المصرى قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها.. لذلك لم تعد تحركنا أى عقد- سواء عقد النقص والانهزامية أو عقد التشكك والأحقاد.. وهذا هو الذى جعلنا نلتقى- بعد أن انجلى غبار المعركة- سواء فى فض الاشتباك الأول أو الثانى أو عندما قابلت جولدا مائير لدى وصولى إلى إسرائيل.

لم يكن بيننا- بعد أن انتهى القتال- إلا الاحترام- وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر.. وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحيتى وجعل القوات المسلحة تحيينى كما لم تحيى إنسانًا من قبل.

إن جذورنا الحضارية قائمة.. عمرها أكثر من سبعة آلاف عام ولا تزال حية ونابضة.. لم تهن أو تضعف أبدًا.. وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصرى الأصيل الذى يبنى للحضارة اليوم مثلما بناها على ضفاف النيل منذ آلاف السنين فى ظل الحرية والسلام..

وبعد...

فليست هذه قصة الصراع العربى الإسرائيلى أو قصة تحرير مصر من الاحتلال البريطانى أو قصة منجزات وأخطاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. ربما كانت ذلك كله وأكثر.. ولكنها فى المقام الأول قصة البحث عن الذات- ذاتى وذات مصر- ذلك الكيان الواحد الذى أشرق فى نفسى منذ الطفولة عندما توحدت ذاتى مع ذات بلادى أرضًا وشعبًا.

هل نجح البحث؟ هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التى وضعتها نصب عينى منذ طفولتى المبكرة؟ أترك للقارئ الحكم على ذلك- فكل ما أستطيع أن أقوله- وحسب مبلغ علمى- هو هذا:

لم يبهرنى يومًا بريق المتع الدنيوية ولم أحاول قط أن أبنى سعادتى على حساب شقاء الآخرين. فأنا أصدر، كل قرار أتخذه وكل عمل أقوم به، عن إيمان راسخ بحق الإنسان فى الكرامة والحرية والسلام والمساواة.

لقد وجدت ذاتى فى الصداقة.. وفى الحب.. وفى العمل الذى يرقى بحياة من حولى.. وفى انتصار الحق على الباطل.. باختصار فى كل ما من شأنه تحقيق صورة كيانى الذى هو كيان بلادى.

لم أسعَ يومًا وراء السلطة إذ اكتشفت فى فجر حياتى أن قوتى تنبع من داخلى، من إيمانى المطلق بالخير والحق والجمال.

وأحمد الله أننى لا أختلف اليوم عما كنت منذ سنوات بعيدة، عندما كنت أصحو مع شروق الشمس وأخرج إلى الحقول لأعمل مع الآخرين حتى تعود إلى الأرض الحياة.. وتحمل الأشجار اليابسة الثمار مرة أخرى..

لم ينتهِ البحث بعد.. وأعتقد أنه لن ينتهى يومًا ما.. إذ إننا فى كل عمل نتخذه لتحقيق ذواتنا نحقق إرادة الله، وإرادته عز وجل خالدة.

ما زال أمامى وأمام شعبى طريق طويل لا بد أن نقطعه حتى نصنع حياة يسودها الحب والسلام والرخاء والاكتمال.

وفقنا الله، وهدى خُطانا وخُطى الجميع فى كل مكان.





لم يبهرنى يومًا بريق المتع الدنيوية ولم أحاول قط أن أبنى سعادتى على حساب شقاء الآخرين



خطاب السلام

فى 20 نوفمبر 1977، وقف الرئيس المصرى الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلى، فى مشهد استثنائى تابعته أنظار العالم، ليعلن من داخل البرلمان الإسرائيلى عن رؤيته لإنهاء الصراع وإرساء السلام فى الشرق الأوسط.

كان الخطاب محطة تاريخية غير مسبوقة، حمل فيها السادات تصوره لشروط السلام ومبادئه، وتحدث عن الأرض والحقوق والأمن ومستقبل شعوب المنطقة، واضعًا أمام النواب الإسرائيليين والمجتمع الدولى رؤيته لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى.

وبعد عقود على إلقائه، يظل النص الكامل للخطاب وثيقة تاريخية مهمة لفهم المبادرة المصرية للسلام، وموقف السادات كما طرحه بنفسه أمام الكنيست.



بسم الله الرحمن الرحيم

«السيد الرئيس

أيها السيدات والسادة

السلام عليكم ورحمة الله

والسلام لنا جميعًا بإذن الله

السلام لنا جميعًا.. على الأرض العربية وفى إسرائيل.. وفى كل مكان من أرض هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادة، المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة، تلك التى يصنعها الإنسان ليقضى بها على أخيه الانسان. وفى النهاية، وبين أنقاض ما بنى الإنسان وبين أشلاء الضحايا من بنى الإنسان، فلا غالب ولا مغلوب، بل إن المغلوب الحقيقى دائمًا هو الإنسان.. أرقى ما خلقه الله.. الإنسان الذى خلقه الله كما يقول غاندى قديس السلام «لكى يسعى على قدميه، يبنى الحياة.. ويعبد الله».

مسئولية السلام

وقد جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين، لكى نبنى حياة جديدة لكى نقيم السلام. وكلنا على هذه الأرض، أرض الله، كلنا مسلمون ومسيحيون ويهود.. نعبد الله ولا نشرك به أحدًا، وتعاليم الله.. ووصاياه.. هى حب وصدق وطهارة وسلام.

وإننى ألتمس العذر لكل من استقبل قرارى عندما أعلنته للعالم كله، أمام مجلس الشعب المصرى، بالدهشة، بل الذهول، بل إن البعض قد صورت له المفاجأة العنيفة أن قرارى ليس أكثر من مناورة كلامية للاستهلاك أمام الرأى العام العالمى، بل وصفه بعض آخر بأنه تكتيك سياسى لكى أخفى به نواياى فى شن حرب جديدة.

ولا أخفى عليكم أن أحد مساعدى فى مكتب رئيس الجمهورية اتصل بى فى ساعة متأخرة من الليل بعد عودتى إلى بيتى من مجلس الشعب، ليسألنى فى قلق: وماذا نفعل يا سيادة الرئيس لو وجهت إليك إسرائيل الدعوة فعلًا؟ فأجبته بكل هدوء: سأقبلها على الفور.

لقد أعلنت أننى سأذهب إلى آخر العالم.. سأذهب إلى إسرائيل لأننى أريد أن أطرح الحقائق كاملة أمام شعب إسرائيل.

إننى ألتمس العذر لكل من أذهله القرار، أو تشكك فى سلامة النوايا وراء إعلان القرار فلم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية، تتحمل العبء الأكبر والمسئولية الأولى فى قضية الحرب والسلام، فى منطقة الشرق الأوسط يمكن أن يعرض قراره بالاستعداد إلى الذهاب إلى أرض الخصم. ونحن لا نزال فى حالة حرب، بل نحن جميعًا لا نزال نعانى آثار أربع حروب قاسية خلال ثلاثين عامًا، بل إن أسر ضحايا حرب أكتوبر ١٩٧٣ لا تزال تعيش مآسى الترمل وفقد الأبناء واستشهاد الآباء والأخوات.

كما أننى كما سبق أن أعلنت من قبل لم أتداول فى هذا القرار مع أحد من زملائى وإخوتى رؤساء الدول العربية، أو دول المواجهة.. ولقد اعترض من اتصل بى منهم بعد إعلان القرار، لأن حالة الشك الكاملة، وفقدان الثقة الكاملة، بين الدول العربية والشعب الفلسطينى من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى، لا تزال قائمة فى كل النفوس، ويكفى أن أشهرًا طويلة كان يمكن أن يحل فيها السلام، قد ضاعت سدى، فى خلافات ومناقشات لا طائل منها حول إجراءات عقد مؤتمر جنيف، وكلها تعبر عن الشك الكامل، وفقدان الثقة الكاملة.

المخاطرة الكبرى

ولكننى أصارحكم القول بكل الصدق بأننى اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل، وأنا أعلم أنه مخاطرة كبيرة، لأنه إذا كان الله قد كتب لى قدرى أن أتولى المسئولية عن شعب مصر، وأن أشارك فى مسئولية المصير بالنسبة للشعب العربى وشعب فلسطين، فإن أول واجبات هذه المسئولية أن أستنفد كل السبل، لكى أجنب شعبى المصرى العربى، وكل الشعب العربى، ويلات حروب أخرى محطمة، مدمرة، لا يعلم مداها إلا الله.

وقد اقتنعت بعد تفكير طويل بأن أمانة المسئولية أمام الله وأمام الشعب، تفرض علىّ أن أذهب إلى آخر مكان فى العالم.. بل أن أحضر إلى بيت المقدس، لأخاطب أعضاء الكنيست ممثلى شعب إسرائيل بكل الحقائق التى تعمل فى نفسى، وأترككم بعد ذلك لكى تقرروا لأنفسكم وليفعل الله بنا بعد ذلك ما يشاء.

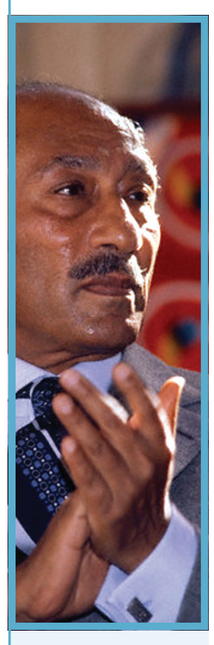
أيها السيدات والسادة:

إن فى حياة الأمم والشعوب لحظات يتعين فيها على هؤلاء الذين يتصفون بالحكمة والرؤية الثاقبة أن ينظروا إلى ما وراء الماضى بتعقيداته ورواسبه من أجل انطلاقة جسورة نحو آفاق جديدة.

المسئولية وشجاعة القرار

وهؤلاء الذين يتحملون مثلنا تلك المسئولية الملقاة على عاتقنا هم أول من يجب أن تتوافر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية التى تتناسب مع جلال الموقف، ويجب أن نرتفع جميعًا فوق جميع صور التعصب وفوق خداع النفس وفوق نظريات التفوق البالية، فمن المهم ألا ننسى أبدًا أن العصمة لله وحده.

وإذا قلت إننى أريد أن أجنب كل الشعب العربى ويلات حروب جديدة مفجعة، فإننى أعلن أمامكم، بكل الصدق، أننى أحمل نفس المشاعر، وأحمل نفس

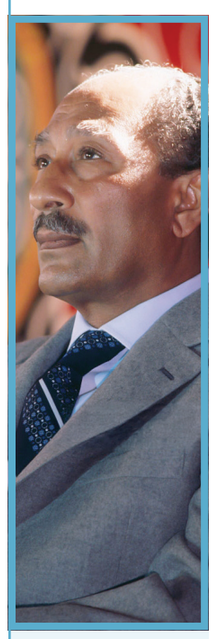


مسئوليتى أن أجنب شعبى المصرى العربى وكل الشعب العربى ويلات حروب أخرى محطمة





السادات وبيجن



إن الزوجة التى تترمل.. هى إنسانة من حقها أن تعيش فى أسرة سعيدة سواء كانت عربية أو إسرائيلية

المسئولية، لكل إنسان فى العالم وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلى.

ضحية الحرب: الإنسان

إن الروح التى تزهق فى الحرب، هى روح إنسان، سواء كان عربيًا أو إسرائيليًا.

إن الزوجة التى تترمل.. هى إنسانة من حقها أن تعيش فى أسرة سعيدة سواء كانت عربية أو إسرائيلية.

إن الأطفال الأبرياء الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم هم أطفالنا جميعًا، على أرض العرب أو فى إسرائيل لهم علينا المسئولية الكبرى فى أن نوفر لهم الحاضر الهانئ والغد الجميل.

من أجل كل هذا، ومن أجل أن نحمى حياة أبنائنا وإخواننا جميعًا.

من أجل أن تنتج مجتمعاتنا، وهى آمنة مطمئنة..

من أجل تطور الإنسان وإسعاده وإعطائه حقه فى الحياة الكريمة..

من أجل مسئوليتنا أمام الأجيال المقبلة..

من أجل بسمة كل طفل يولد على أرضنا..

من أجل كل هذا اتخذت قرارى أن أحضر إليكم رغم كل المحاذير لكى أقول كلمتى.

مسئولية تاريخية

ولقد تحملت وأتحمل متطلبات المسئولية التاريخية.

ومن أجل ذلك أعلنت من قبل ومنذ أعوام وبالتحديد فى ٤ فبراير ١٩٧١، أننى مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، وكان هذا هو أول إعلان يصدر من مسئول عربى منذ أن بدأ الصراع العربى الإسرائيلى.

وبكل هذه الدوافع، التى تفرضها مسئولية القيادة أعلنت فى السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصرى، الدعوة إلى مؤتمر دولى يتقرر فيه السلام العادل الدائم.

ولم أكن فى ذلك الوقت فى وضع من يستجدى السلام، أو يطلب وقف النار.

وبهذه الدوافع كلها، التى يلزم بها الواجب التاريخى والقيادى، وقعنا اتفاق فك الاشتباك الأول، ثم اتفاق فك الاشتباك الثانى فى سيناء. ثم سعينا نطرق الأبواب المفتوحة والمغلقة لإيجاد طريق معين نحو سلام دائم عادل وفتحنا قلوبنا لشعوب العالم كله لكى تتفهم دوافعنا، وأهدافنا، ولكى تقتنع فعلًا، أننا دعاة عدل، وصناع سلام.

وبهذه الدوافع كلها، قررت أن أحضر إليكم، بعقل مفتوح وقلب مفتوح وإرادة واعية، لكى نقيم السلام الدائم القائم على العدل.

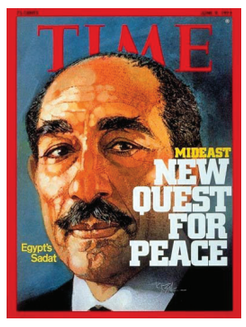
تباشير الأمن والأمان والسلام

وشاءت المقادير أن تجىء رحلتى إليكم، رحلة السلام فى يوم العيد الإسلامى الكبير عيد الأضحى المبارك عيد التضحية والفداء، حين أسلم إبراهيم عليه السلام، جد العرب واليهود. أقول حين أمره الله، وتوجه إليه بكل جوارحه، لا عن ضعف بل عن قوة روحية هائلة وعن اختيار حر للتضحية بفلذة كبده، بدافع من إيمانه الراسخ الذى لا يتزعزع بمثل عليا تعطى الحياة مغزى عميقًا.

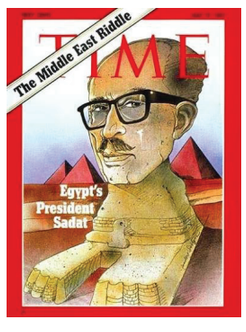
ولعل هذه المصادفة تحمل معنى جديدًا، فى نفوسنا جميعًا، لعله يصبح أملًا حقيقيًا فى تباشير الأمن والأمان والسلام.

الحقائق الخمس

أيها السيدات والسادة..



لا نريد أن نحيطكم أو أن تحيطونا بالصواريخ المستعدة للتدمير





دعونا نتصارح، بالكلمة المستقيمة، والفكرة الواضحة التى لا تحمل أى التواء، ودعونا نتصارح اليوم، والعالم كله بغربه وشرقه يتابع هذه اللحظات الفريدة، التى يمكن أن تكون نقطة تحول جذرى فى مسار التاريخ فى هذه المنطقة من العالم، إن لم يكن فى العالم كله.

دعونا نتصارح ونحن نجيب عن السؤال الكبير: كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم العادل؟

لقد جئت إليكم أحمل جوابى الواضح الصريح على هذا السؤال الكبير، لكى يسمعه الشعب فى إسرائيل، ولكى يسمعه العالم أجمع، ولكى يسمعه أيضًا كل أولئك الذين تصل أصوات دعوات أصواتهم المخلصة إلى أذنى، أملًا فى أن تتحقق فى النهاية النتائج التى يرجوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخى.

وقبل أن أعلن لكم جوابى، أرجو أن أؤكد لكم، أننى أعتمد فى هذا الجواب الواضح الصريح، على عدة حقائق لا مهرب لأحد من الاعتراف بها.

الحقيقة الأولى: إنه لا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين.

الحقيقة الثانية: إننى لم أتحدث، ولن أتحدث بلغتين.

ولم أتعامل ولن أتعامل بسياستين.

ولست ألتقى أحدًا، إلا بلغة واحدة، وسياسة واحدة، ووجه واحد.

الحقيقة الثالثة: إن المواجهة المباشرة، وإن الخط المستقيم، هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح.

الحقيقة الرابعة: إن دعوة السلام الدائم العادل، المبنى على احترام قرارات الأمم المتحدة، أصبحت اليوم دعوة العالم كله، وأصبحت تعبيرًا واضحًا عن ارادة المجتمع الدولى، سواء فى العواصم الرسمية التى تصنع السياسة والقرار، أو على مستوى الرأى العام العالمى الشعبى، ذلك الرأى العام الذى يؤثر فى صنع السياسة واتخاذ القرار.

الحقيقة الخامسة: ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها، أن الأمة العربية لا تتحرك فى سعيها من أجل السلام الدائم العادل، من موقع ضعف أو اهتزاز، بل إنها على العكس تمامًا تملك من مقومات القوة والاستقرار، ما يجعل كلمتها نابعة من إرادة صادقة نحو السلام، صادرة عن إدراك حضارى بأنه لكى نتجنب كارثة محققة، علينا وعليكم وعلى العالم كله، فإنه لا بديل عن إقرار سلام دائم وعادل، لا تزعزعه الأنواء ولا تعبث به الشكوك، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا.

سلام دائم عادل

من واقع هذه الحقائق، التى أردت أن أضعكم فى صورتها، كما أراها، أرجو أيضًا أن أحذركم أن تطرأ على أذهانكم.

أن واجب المصارحة يقتضى أن أقول لكم ما يلى:

أولًا: إننى لم أجئ إليكم لكى أعقد اتفاقًا منفردًا بين مصر وإسرائيل. ليس هذا واردًا فى سياسة مصر، فليست المشكلة هى مصر وإسرائيل، وأى سلام منفرد بين مصر وإسرائيل أو بين أى دولة من دول المواجهة وإسرائيل فإنه لن يقيم السلام الدائم العادل فى المنطقة كلها. بل أكثر من ذلك، فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية، فإن ذلك لن يحقق أبدًا السلام الدائم العادل الذى يلح العالم كله اليوم عليه.

ثانيًا: إننى لم أجئ إليكم لكى أسعى إلى سلام جزئى، بمعنى أن ننهى حالة الحرب فى هذه المرحلة، ثم نرجئ المشكلة برمتها إلى مرحلة تالية.

فليس هذا هو الحل الجذرى الذى يصل بنا إلى السلام الدائم.

ويرتبط بهذا أننى لم أجئ إليكم، لكى نتفق على فض اشتباك ثالث فى سيناء، أو فى سيناء والجولان والضفة الغربية، فإن هذا يعنى أننا نؤجل فقط اشتعال الفتيل إلى أى وقت مقبل.

بل هو يعنى، أننا نفتقد شجاعة مواجهة السلام، وأننا أضعف من أن نتحمل أعباء ومسئوليات السلام الدائم العادل.

لماذا جئت إليكم؟

لقد جئت إليكم، لكى نبنى معًا، السلام الدائم العادل، حتى لا تراق نقطة دم واحدة من جسد عربى أو إسرائيلى.

ومن أجل هذا أعلنت أننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم.

وهنا، أعود إلى الإجابة عن السؤال الكبير: كيف نحقق السلام الدائم العادل؟

فى رأيى.. وأعلنها من هذا المنبر للعالم كله، أن الاجابة ليست مستحيلة ولا هى بالعسيرة، على الرغم من مرور أعوام طويلة، من ثأر الدم، والأحقاد والكراهية، وتنشئة أجيال على القطيعة الكاملة والعداء المستحكم.

الاجابة ليست عسيرة ولا هى مستحيلة، إذا طرقنا سبيل الخط المستقيم، بكل الصدق والايمان.

العيش معًا

أنتم تريدون العيش معنا فى هذه المنطقة من العالم.

وأنا أقول لكم بكل الإخلاص: إننا نرحب بكم بيننا.. بكل الأمن والأمان.

إن هذا فى حد ذاته يشكل نقطة تحول هائلة، من علامات تحول تاريخى حاسم.

لقد كنا نرفضكم، وكانت لنا أسبابنا ودعوانا..

نعم.

لقد كنا نرفض الاجتماع بكم.. فى أى مكان..

نعم.

لقد كنا نصفكم بإسرائيل المزعومة..

نعم.

لقد كانت تجمعنا المؤتمرات أو المنظمات الدولية، وكان ممثلونا، ولا يزالون، لا يتبادلون التحية والسلام.

نعم.

حدث هذا ولا يزال يحدث.

لقد كنا نشترط لأى مباحثات، وسيطًا يلتقى بكل طرف على انفراد.

نعم.

هكذا تمت مباحثات فض الاشتباك الأول، وهكذا أيضًا تمت مباحثات فض الاشتباك الثانى.

كما أن ممثلينا التقوا فى مؤتمر جنيف الأول، دون تبادل كلمة مباشرة.

نعم.

هذا حدث.

ولكننى أقول لكم اليوم.. وأعلن للعالم كله.. إننا نقبل بالعيش معكم فى سلام دائم وعادل، ولا نريد أن نحيطكم أو أن تحيطونا بالصواريخ المستعدة للتدمير، أو بقذائف الأحقاد والكراهية.

ولقد أعلنت أكثر من مرة أن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة، اعترف بها العالم، وحملت القوتان العُظميان مسئولية أمنها وحماية وجودها.

ولما كنا نريد السلام فعلًا وحقًا فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا فى أمن وسلام، فعلًا وحقًا.

وتحطم الجدار فى عام ١٩٧٣

لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخم مرتفع، حاولتم أن تبنوه على مدى ربع قرن من الزمان، ولكنه تحطم فى عام ١٩٧٣.

كان جدارًا من الحرب النفسية المستمرة فى التهابها وتصاعدها.

كان جدارًا من التخويف بالقوة القادرة على اكتساح الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها.

كان جدارًا من الترويج بأننا أمة تحولت إلى جثة بلا حراك، بل أن منكم من قال إنه حتى بعد مضى خمسين عامًا مقبلة، فلن تقوم للعرب قائمة من جديد.

كان جدارًا يهدد دائمًا بالذراع الطويلة القادرة على الوصول إلى أى موقع وإلى أى بعد.

كان جدارًا يحذرنا من الإبادة والفناء، إذا نحن حاولنا أن نستخدم حقنا المشروع فى تحرير أرضنا المحتلة.

الجدار الآخر

وعلينا أن نعترف معًا بأن هذا الجدار قد وقع وتحطم فى عام ١٩٧٣. ولكن بقى جدار آخر.

هذا الجدار الآخر، يشكل حاجزًا نفسيًا معقدًا بيننا وبينكم حاجزًا من الشكوك، حاجزًا من النفور، حاجزًا من خشية الخداع، حاجزًا من الأوهام حول أى تصرف أو فعل أو إقرار، حاجزًا من التفسير الحذر الخاطئ لكل حدث أو حديث.

وهذا الحاجز النفسى هو الذى عبرت عنه، فى تصريحات رسمية، بأنه يشكل سبعين فى المائة من المشكلة.

وإننى أسألكم اليوم بزيارتى لكم: لماذا لا نمد أيادينا، بصدق وإيمان وإخلاص، لكى نحطم هذا الحاجز معًا؟

لماذا لا تتفق إرادتنا، بصدق وإيمان وإخلاص، لكى نزيل معًا كل شكوك الخوف والغدر والتواء المقاصد وإخفاء حقائق النوايا؟

لماذا لا نتصدى معًا بشجاعة الرجال، وبجسارة الأبطال الذين يهبون حياتهم لهدف أسمى؟

لماذا لا نتصدى معًا بهذه الشجاعة والجسارة لكى نقيم صرحًا شامخًا للسلام، يحمى ولا يهدد.. يشع لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الإنسانية نحو البناء والتطور ورفعة الإنسان؟..

لماذا نورث هذه الأجيال نتائج سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وتيتيم الأطفال، وترمل الزوجات، وهدم الأسر، وأنين الضحايا.

لماذا لا نؤمن بحكمة الخالق التى أوردها فى أمثال سليمان الحكيم.

«الغش فى قلب الذين يفكرون فى الشر، أما المشيرون بالسلام فلهم فرح».

«لقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملىء بالذبائح مع الخصام».

لماذا لا نردد معًا من مزامير داود النبى.

«إليك يا رب أصرخ.. اسمع صوت تضرعى إذا استغثت بك، وارفع يدى إلى محراب قدسك، لا تجذبنى مع الأشرار، ومع فعلة الإثم، المخاطبين أصحابهم بالسلام والشر فى قلوبهم أعطهم حسب فعلهم، وحسب شر أعمالهم، أطلب السلامة وأسعى وراءها».

لن يجدى التوسع شيئًا

أيها السادة..

الحق أقول لكم إن السلام لن يكون اسمًا على مسمى ما لم يكن قائمًا على العدالة وليس على احتلال أرض الغير.

ولا يسوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم.

وبكل صراحة، وبالروح التى حدت بى إلى القدوم إليكم اليوم فإنى أقول لكم: إن عليكم أن تتخلوا نهائيًا عن أحلام الغزو وأن تتخلوا أيضًا عن الاعتقاد بأن القوة هى خير وسيلة للتعامل مع العرب.

إن عليكم أن تستوعبوا جيدًا دروس المواجهة بيننا وبينكم فلن يجديكم التوسع شيئًا.

ولكى نتكلم بوضوح فإن أرضنا لا تقبل المساومة.



السادات يؤدى صلاة عيد الأضحى فى المسجد الأقصى

وليست عرضة للجدل.

إن التراب الوطنى والقومى يعتبر لدينا فى منزلة الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله موسى عليه السلام «ولا يملك أى منا، ولا يقبل، أن يتنازل عن شبر واحد منه، أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه».

فرصة السلام

والحق أقول لكم أيضًا: إن أمامنا اليوم الفرصة السانحة للسلام وهى فرصة لا يمكن أن يجود بمثلها الزمان إذا كنا جادين حقًا فى النضال من أجل السلام.

وهى فرصة، لو أضعناها أو بددناها، فلسوف تحل بالمتآمر عليها، لعنة الإنسانية ولعنة التاريخ.

ما هو السلام بالنسبة لإسرائيل؟

أن تعيش فى المنطقة مع جيرانها العرب.. فى أمن واطمئنان..

هذا منطق أقول له نعم.

أن تعيش إسرائيل فى حدودها، آمنة من أى عدوان.

هذا منطق أقول له نعم.

أن تحصل إسرائيل على كل أنواع الضمانات التى تؤمن لها هاتين الحقيقتين.

هذا مطلب أقول له نعم.

بل إننا نعلن أننا نقبل كل الضمانات الدولية التى تتصورونها وممن ترضونه أنتم.

نعلن أننا نقبل كل الضمانات التى تريدونها من القوتين العُظميين، أو من إحداهما، أو من الخمسة الكبار، أو من بعضهم.

وأعود فأعلن بكل الوضوح: إننا قابلون بأى ضمانات ترتضونها لأننا فى المقابل، سنأخذ نفس الضمانات.

خلاصة القول أذن عندما نسأل: ما السلام بالنسبة لإسرائيل؟

يكون الرد أن تعيش إسرائيل فى حدودها مع جيرانها العرب فى أمن وآمان وفى إطار كل ما ترتضيه من ضمانات يحصل عليها الطرف الآخر.

السلام مستحيل مع الاحتلال

ولكن كيف يتحقق هذا؟

كيف يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة لكى نصل بها إلى السلام الدائم العادل؟

هناك حقائق لا بد من مواجهتها بكل شجاعة ووضوح.

هناك أرض عربية احتلتها ولا تزال تحتلها إسرائيل بالقوة المسلحة ونحن نصر على تحقيق الانسحاب الكامل منها بما فيها القدس العربية.. القدس التى حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام. والتى كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحى للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث.

وليس من المقبول أن يفكر أحد فى الوضع الخاص لمدينة القدس فى إطار الضم أو التوسع، وإنما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين.

وأهم من كل هذا فإن تلك المدينة يجب ألا تفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقرًا ومقامًا لعدة قرون. وبدلًا من إيقاظ أحقاد الحروب الصليبية، فإننا يجب أن نحيى روح عمر بن الخطاب وصلاح الدين.. أى روح التسامح واحترام الحقوق.

إن دور العبادة الإسلامية والمسيحية ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والشعائر بل إنها تقوم شاهد صدق على وجودنا الذى لم ينقطع فى هذا المكان سياسيًا وروحيًا وفكريًا.

وهنا، فانه يجب ألا يخطئ أحد تقدير الأهمية والإجلال اللذين نُكنها للقدس، نحن معشر المسيحيين والمسلمين.

لا أتقدم برجاء

ودعونى أقول لكم بلا أدنى تردد، إننى لم أجئ إليكم تحت هذه القبة لكى أتقدم برجاء أن تجلو قواتكم من الأرض المحتلة.

إن الانسحاب الكامل من الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧، أمر بديهى لا نقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لأحد أو من أحد.

ولا معنى لأى حديث عن السلام الدائم العادل ولا معنى لأى خطوة لضمان حياتنا معًا فى هذه المنطقة من العالم فى أمن وأمان، وأنتم تحتلون أرضًا عربية بالقوة المسلحة، فليس هنالك سلام يستقيم أو يبنى مع احتلال أرض الغير.

نعم. هذه بديهية لا تقبل الجدل والنقاش إذا خلصت النوايا، وصدق النضال لاقرار السلام الدائم العادل لجيلنا ولكل الأجيال من بعدنا.

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية، فليس هناك من ينكر أنها جوهر المشكلة كلها، وليس هناك من يقبل اليوم فى العالم كله شعارات رفعت هنا فى إسرائيل، تتجاهل وجود شعب فلسطين بل وتتساءل: أين هو هذا الشعب؟.

إن قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل أو إنكار من أحد.

بل لا يحتمل عقل يفكر أن تكون موضع تجاهل أو انكار.

إنها واقع استقبله المجتمع الدولى، غربًا وشرقًا. بالتأييد والمساندة والاعتراف فى مواثيق دولية، وبيانات رسمية لن يجدى أحد أن يصم آذانه عن دويها المسموع ليل نهار أو أن يغمض عينيه عن حقيقتها التاريخية، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية، حليفكم الأول التى تحمل قمة الالتزام لحماية وجود إسرائيل وأمنها والتى قدمت وتقدم إلى إسرائيل كل عون معنوى ومادى وعسكرى.

أقول حتى الولايات المتحدة اختارت أن تواجه الحقيقة والواقع وأن تعترف بأن للشعب الفلسطينى حقوقًا مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية هى قلب الصراع وجوهره، وما دامت بقيت معلقة دون حل، فإن النزاع سوف يتزايد ويتصاعد ليبلغ أبعادًا جديدة، وبكل الصدق أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين وإنه لخطأ جسيم لا يعلم مداه أحد أن نغض الطرف عن تلك القضية أو أن نُنحيها جانبًا.

الوطن الفلسطينى

ولن أستطرد فى سرد أحداث الماضى منذ صدر وعد بلفور لستين عامًا خلت، فأنتم على بينة من الحقائق جيدًا.

وإذا كنتم قد وجدتم المبرر القانونى والأخلاقى لإقامة وطن قومى على أرض لم تكن كلها ملكًا لكم، فأولى بكم أن تتفهموا إصرار شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد فى وطنه.

وحين يطالب بعض الغلاة والمتطرفين أن يتخلى الفلسطينيون عن هذا الهدف الأسمى، فإن معناه فى الواقع وحقيقة الأمر مطالبة له بالتخلى عن هويتهم، وعن كل أمل لهم فى المستقبل.

إننى أحيى أصواتًا إسرائيلية، طالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى، وصولًا إلى السلام، وضمانًا له.

ولذلك، فإننى أقول لكم أيها السيدات والسادة إنه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقوقه فى إقامة دولته وفى العودة.

لقد مررنا نحن العرب بهذه التجربة من قبل، معكم، ومع حقيقة الوجود الإسرائيلى وانتقل بنا الصراع، من حرب إلى حرب، ومن ضحايا إلى مزيد من الضحايا حتى وصلنا اليوم نحن وأنتم إلى حافة هاوية رهيبة، وكارثة مروعة إذا نحن لم نغتنم اليوم معًا فرصة السلام الدائم العادل.

عليكم أن تواجهوا الواقع مواجهة شجاعة، كما واجهته أنا.

ولا حل لمشكلة أبدًا بالهروب منها أو التعالى عليها.

ولا يمكن أن يستقر سلام، بمحاولة فرض أوضاع وهمية، أدار لها العالم كله ظهره، وأعلن نداءه الإجماعى بوجوب احترام الحق والحقيقة.

ولا داعى للدخول فى الحلقة المفرغة مع الحق الفلسطينى.

ولا جدوى من خلق العقبات، إلا أن تتأخر مسيرة السلام.

أو أن يقتل السلام.

وكما قلت لكم، فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين، كما أن المواجهة المباشرة والخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح.

والمواجهة المباشرة للمشكلة الفلسطينية، واللغة الواحدة لعلاجها نحو سلام دائم عادل، هى فى أن تقوم دولته.

ومع كل الضمانات الدولية التى تطلبونها، فلا يجوز أن يكون هناك خوف من دولة وليدة تحتاج إلى معونة كل دول العالم لقيامها.

وعندما تدق أجراس السلام فلن توجد يد لتدق طبول الحرب وإذا وجدت فلن يسمع لها صوت.

السلام كتابة جديدة للتاريخ

وتصوروا معى اتفاق سلام فى جنيف، نزفه إلى العالم المتعطش إلى السلام.

اتفاق سلام يقوم على:

أولًا: إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧.

ثانيًا: تحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير المصير بما فى ذلك حقه فى إقامة دولته.

ثالثًا: حق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها تحقق الأمن المناسب للحدود الدولية، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة.

رابعًا: تلتزم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها طبقًا لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وبصفة خاصة عدم الالتجاء إلى القوة، وحل الخلافات بينهم بالوسائل السلمية.

خامسًا: إنهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة.

كتابة جديدة للتاريخ

أيها السيدات والسادة..

إن السلام ليس توقيعًا على سطور مكتوبة، بل إنه كتابة جديدة للتاريخ.

إن السلام ليس مباراة فى المناداة به للدفاع عن أية شهوات أو لستر أية أطماع، فالسلام فى جوهره نضال جبار ضد كل الأطماع والشهوات.

ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعًا، أن الصواريخ والبوارج والأسلحة النووية لا يمكن أن تقيم الأمن، ولكنها على العكس تحطم كل ما يبنيه الأمن.

وعلينا..

من أجل شعوبنا..

من أجل حضارة صنعها الإنسان، أن نحمى الإنسان فى كل مكان.. من سلطان قوة السلاح.

علينا أن نعلى سلطان الإنسانية بكل قوة القيم والمبادئ التى تعطى مكانة الإنسان.

رسالة السلام

وإذا سمحتم لى، أن أتوجه بندائى من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل.. فإننى أتوجه بالكلمة الصادقة الخالصة إلى كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل.

إننى أحمل إليكم من شعب مصر الذى يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام.

أحمل إليكم رسالة السلام رسالة شعب مصر الذى لا يعرف التعصب، والذى يعيش أبناؤه منمسلمين ومسيحيين ويهود بروح المودة والحب والتسامح.

هذه هى مصر، التى حملنى شعبها أمانة الرسالة المقدسة.. رسالة الأمن والأمان والسلام.

نضال السلام

فيا كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل.. شجعوا قياداتكم على نضال السلام.

ولتتجه الجهود إلى بناء صرح شامخ للسلام، بدلًا من بناء القلاع والمخابئ المحصنة بصواريخ الدمار.

قدموا للعالم كله، صورة الإنسان الجديد، فى هذه المنطقة من العالم، لكى يكون قدوة لإنسان العصر.. إنسان السلام فى كل موقع ومكان.

بشروا أبناءكم.. إن ما مضى، هو آخر الحروب ونهاية الآلام، وأن ما هو قادم هو

البداية الجديدة، للحياة الجديدة.. حياة الحب والخير والحرية والسلام.

ويا أيتها الأم الثكلى.. ويا أيتها الزوجة المترملة.. ويا أيها الابن الذى فقد الأخ والأب.. يا كل ضحايا الحروب.. املأوا الأرض والفضاء، بتراتيل السلام..

املأوا الصدور والقلوب، بآمال السلام.. اجعلوا الأنشودة حقيقة تعيش وتثمر..

اجعلوا الأمل دستور عمل ونضال.. وإرادة الشعوب هى من إرادة الله..

معركة السلام العادل والدائم

أيها السيدات والسادة..

قبل أن أصل إلى هذا المكان، توجهت بكل نبضة فى قلبى، وبكل خلجة فى ضميرى، إلى الله سبحانه وتعالى، وأنا أؤدى صلاة العيد فى المسجد الأقصى، وأنا أزور كنيسة القيامة، توجهت إلى الله سبحانه وتعالى، بالدعاء أن يلهمنى القوة، وأن يؤكد يقين إيمانى بأن تحقق هذه الزيارة أهدافها، التى أرجوها من أجل حاضر سعيد، ومستقبل أكثر سعادة..

لقد اخترت أن أخرج على كل السوابق والتقاليد التى عرفتها الدول المتحاربة، ورغم أن احتلال الأرض العربية ما زال قائمًا، بل كان إعلانى عن استعدادى للحضور إلى إسرائيل مفاجأة كبرى هزت كثيرًا من المشاعر، وأذهلت كثيرًا من العقول، بل شككت فى نواياها بعض الآراء، برغم كل ذلك فإننى استلهمت القرار بكل صفاء الإيمان وطهارته، وبكل التعبير الصادق عن إرادة شعبى ونواياه، واخترت هذا الطريق الصعب، بل إنه فى نظر الكثيرين أصعب طريق.

اخترت أن أحضر إليكم.. بالقلب المفتوح والفكر المفتوح.

اخترت أن أعطى هذه الدفعة لكل الجهود العالمية المبذولة من أجل السلام.

اخترت أن أقدم لكم وفى بيتكم الحقائق المجردة عن الأغراض والأهواء.

لا مناورات لكسب جولات

لا لكى أناور. ولا لكى أكسب جولة. ولكن لكى نكسب معا، أخطر الجولات والمعارك فى التاريخ المعاصر. معركة السلام العادل والدائم.

إنها ليست معركتى فقط، ولا هى معركة القيادات فقط فى إسرائيل. ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعًا، من حقه أن يعيش فى سلام.

إنها التزام الضمير والمسئولية فى قلوب الملايين.

ولقد تساءل الكثيرون، عندما طرحت هذه المبادرة، عن تصورى لما يمكن إنجازه فى هذه الزيارة، وتوقعاتى منها.

وكما أجبت السائلين، فإننى أعلن أمامكم عن أننى لم أفكر فى القيام بهذه المبادرة من منطلق ما يمكن تحقيقه أثناء الزيارة، وإنما جئت هنا لكى أبلغ رسالة.

ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

اللهم إننى أردد مع زكريا قوله: «أحبوا الحق والسلام».

وأستلهم آيات الله العزيز الحكيم حين قال: «قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون». صدق الله العظيم

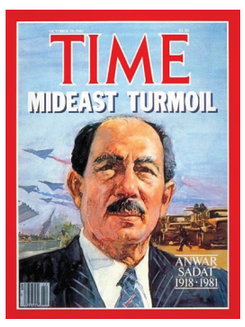
والسلام عليكم

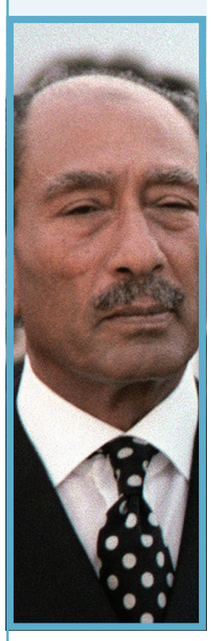


القدس كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحى للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث



إن السلام ليس توقيعًا على سطور مكتوبة بل إنه كتابة جديدة للتاريخ





شهادة جيهان السادات

من موقعها إلى جوار الرئيس الراحل أنور السادات، عاشت جيهان السادات تفاصيل مرحلة تاريخية فارقة، شهدت خلالها تحولات كبرى فى مسار السياسة المصرية، وفى مقدمتها زيارة القدس ومبادرة السلام مع إسرائيل.

وفى كتابها «سيدة من مصر»، تقدم جيهان روايتها الخاصة لهذه المرحلة، مستعيدة مشاهد من الكواليس والأجواء الأسرية والإنسانية المحيطة بالقرار، وما رافقه من أحداث ومواقف وانفعالات، إلى جانب تجربتها الشخصية مع واحدة من أكثر المحطات حضورًا فى تاريخ زوجها السياسى.

وتكشف هذه الصفحات جانبًا آخر من الحكاية، كما رأته وعاشته زوجة الرئيس، لتقدم شهادة شخصية موازية لرواية السادات عن رحلته نحو السلام.





السادات لدى وصوله إسرائيل وفى استقباله بيجن



عندما أعلن زوجى استعداده للذهاب إلى القدس أدركت على الفور أنه سوف يلقى مصرعه ضحية لهذا السلام

عندما أعلن زوجى استعداده للذهاب إلى القدس لتحقيق السلام مع إسرائيل، أدركت على الفور أنه سوف يلقى مصرعه ضحية لهذا السلام. لم أعرف متى سيقتل ولا أين ولا من الذى سيقتله. أدركت فقط أن أيامى مع زوجى أصبحت معدودة. ومنذ تلك اللحظة فى نوفمبر ١٩٧٧ حتى اغتياله أصبح الصداع الذى أصبت به منذ سنوات مزمنًا. لم أعرف يومًا مر بى دون ألم.

قليلون أولئك الذين عرفوا مقدمًا بنية أنور زيارة القدس. لم أكن منهم، ولو أن أنور ناقش قراره معى لكنت قد أيدته بنسبة مائة فى المائة، وبالرغم من أننى أدركت أنه سيفقد حياته فى النهاية، إلا أننى أدركت أن السلام مع إسرائيل هو الطريق الوحيد المفتوح أمام مصر.

إن أى حروب فى المستقبل لم تكن لتسفر عن شىء. فالإسرائيليون قادرون على السيطرة على سيناء، وهى منطقة مملوءة بالرمال وقبائل البدو، لكن إسرائيل ذات المليونى نسمة لم تكن لتستطيع أبدًا أن تأمل فى احتلال مصر وإخضاع ٤٢ مليون نسمة، وفى الوقت نفسه لم نكن لنستطيع أن نقهر إسرائيل حتى لو وصلت قواتنا إلى تل أبيب؛ لأن الولايات المتحدة لم تكن لتسمح بذلك.. وكان أنور يقول دائمًا «إنه من قبيل السخرية أن نخوض حربًا بعد حرب مع إسرائيل ولا نكسب شيئًا».

إنه لأجل السلام خاض أنور الحرب مع إسرائيل عام ١٩٧٣. لقد اضطر إلى ذلك. فقد قال مرارًا إن السلام مع الإسرائيليين لن يتحقق حتى يوقنوا أن مصر تستطيع إلحاق أضرار جسيمة بهم مثلما ألحقوا هم أضرارًا جسيمة بنا. وقد أثبت ذلك النصر الساحق الذى حققناه فى حرب ١٩٧٣ قبل أن تتدخل الولايات المتحدة. ومنذ ذلك الوقت استطاع أن يقول لإسرائيل «أنا هنا.. لست ضعيفًا، الآن دعونا نتفاوض». ولم يكن ممكنًا تأجيل تلك اللحظة أطول من ذلك.

إن التخلف عن التنمية فى مصر كان يمزق أنور، كان يريد أن يبنى مدارس ومستشفيات، ويقيم مراكز صناعية جديدة، ويوفر فرص عمل، لكن تكلفة كل شىء كانت تتزايد. وقد جلبت سياسة «الانفتاح» الاقتصادية التى انتهجها أنور فوائد جديدة لمصر من الاستثمار الأجنبى، لكنها تسببت فى ارتفاع معدل التضخم أيضًا. كانت تكاليف المعيشة تتزايد باضطراد، وأصبح المزيد والمزيد من أبناء شعبنا لا يقدرون على توفير إسكان لائق لأسرهم، أو حتى الغذاء لأطفالهم. وبحلول ١٩٧٧ بلغت ديوننا الخارجية حوالى ١٥ مليار دولار.

كانت بلادنا فى ضائقة مالية تبعث على اليأس دون أن نلمح نهاية فى الأفق. لقد كلفت الحروب الأربع التى خضناها مع إسرائيل مصر مليارات الجنيهات. وبسبب تهديد إسرائيل المستمر اضطر أنور إلى مواصلة إنفاق ثلث الميزانية السنوية على الدفاع بدلًا من الانفاق على الخدمات من أجل شعبنا. لقد أصبحت الحروب مكلفة جدًا حتى فى البشر. فقد فقد آلاف كثيرة من الجنود المصريين حياتهم، ولا تزال أرضنا محتلة.

كان يتعين إذن على شخص ما أن يفعل شيئًا لإيقاف هذه الدائرة المأساوية، وأن يخطو الخطوة الأولى نحو إيجاد حل. ولم يدهشنى أنه سيكون زوجى.

فى ٩ نوفمبر استيقظت متأخرة قليلًا واضطررت للإسراع لاستكمال واجبى من أجل طلبتى فى الجامعة قبل أن أذهب إلى غرفة نوم أنور لإيقاظه.

قلت له «صباح الخير» وأنا أفتح نوافذ الغرفة. ورد قائلًا «صباح النور».

وبينما كنت أسلمه صحيفة الصباح، لاحظت أن وجهه يبدو عليه الهدوء والصفاء. قلت: «هل نمت جيدًا؟» قال: «جدًا»، وعيناه صافيتان لا يبدو عليهما الانتفاخ الذى يدل على الأرق والسهاد.

كنت أريد أن أجلس معه لتناول الإفطار معًا، ولقراءة الصحف سويًا، لكنى كنت قد تأخرت عن برنامجى المقرر واعتذرت قائلة: «لن أعود إلى البيت حتى وقت متأخر من الليل.. لدى لقاء هام مع مجموعة نسائية».

فرد أنور متهكمًا بقوله: «دائمًا أنت هكذا مستعجلة يا جيهان.. ليس لدى شىء اليوم سوى إلقاء خطاب الجلسة الافتتاحية للبرلمان».

وفى طريقى إلى الاجتماع بالسيارة قرأت مسودة مشروع الكوبرى الجديد الذى كنا نحاول أن نجمع أمواله فى محافظة المنوفية. وحاولت ألا أصاب بالاكتئاب عندما كانت سيارتى تشق طريقها ببطء شديد وسط زحام مرور القاهرة بجانب مخلفات حرائق المسارح والمطاعم والمقاهى التى دمرتها أحداث الشغب قبل ذلك بشهور. كانت الحكومة قد نفذت مشورة صندوق النقد الدولى فى يناير ١٩٧٧، وأمرت بخفض الإعانات الحكومية لسلع أساسية مثل الخبز واللحم والسكر والزيت والأرز والصابون. كان ذلك بالنسبة للذين حسبوه أمرًا معقولًا حيث إن الدعم يكلف الحكومة أكثر من مليار جنيه سنويًا فى ذلك الوقت. لكن خفض الدعم بالنسبة لملايين المصريين الذين يعتمدون عليه فى إطعام أسرهم كان بمثابة الغضب الذى لا رجعة فيه.

لقد ألغى دعم الشاى.. وزاد سعر كيلو الأرز والسكر عشرة مليمات.. وارتفع سعر أنبوبة البوتاجاز إلى ٩٥ قرشًا. أدركت بمجرد أن قرأت الصفحة الأولى من «الأهرام» صباح ١٨ يناير أن اضطرابات ستحدث. لكن ما لم أكن أعرفه هو ماذا سيكون حجم هذه الاضطرابات. ومن شرفة منزلى بالجيزة رأيت سحب الدخان بدأت تخيم فى سماء القاهرة. وفى قلق اتصلت بفوزى عبدالحافظ، سكرتير الرئيس، فى مكتبه أسأله: «ما الذى يحترق؟» متمنية أن يكون أنور فى القاهرة بدلًا من أسوان حيث كان يستقبل الرئيس تيتو رئيس يوغوسلافيا.

ورد فوزى قائلًا: «محلات وسط البلد والملاهى الليلية على طول شارع الهرم. إن المظاهرة التى بدأت سلمية لمعارضة تخفيضات الدعم تتحول إلى أحداث شغب. والمحرضون يحثون الجمهور على إشعال النيران».

وعدت بسرعة إلى الشرفة، وسمعت الانفجار بعد الآخر بينما يتم إشعال النار فى مزيد من المحلات والسيارات. كان شيئًا مرعبًا يعيد للأذهان أحداث الشغب التى وقعت قبل حريق القاهرة فى ١٩٥٢. لم يكن أحد يعلم على وجه اليقين من الذى تسبب فى هذا العنف حينذاك، لكن فى هذه المرة ساورنى الشك فى الشيوعيين الذين واصلوا معارضتهم لقرار أنور بفتح مصر للمستثمرين الأجانب. المزيد والمزيد من المحلات التى تحوى سلعًا أجنبية وتقدم الطعام والتسلية للسياح كان يجرى إشعال النيران فيها. كنت أفتح التليفزيون وأتصل بمكتب أنور كل ٢٠ دقيقة للاستفسار، ثم امتدت أحداث الشغب إلى الإسكندرية وحتى إلى أسوان حيث كانت الرعاع الغاضبة تدمر كل الرموز الغربية للوفرة وبحبوحة العيش التى لم يتمكنوا من تحقيقها.

كانت الجماهير تردد شعارات مثل «يابو العبور فين الفطور؟».. «جيهان يا جيهان الشعب جعان، جيهان يا جيهان الشعب غضبان».. وعلى مدى الأيام الثلاثة التى استغرقتها أحداث الشغب، قتل وأصيب أكثر من مائة شخص.

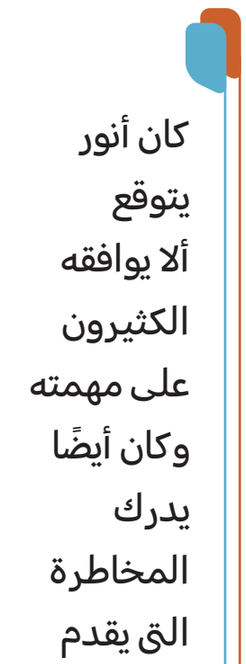
ومن عمّان اتصلت الملكة علياء، ملكة الأردن، بى قائلة: «هل أنتم بخير جميعًا؟»، ومن باريس اتصلت الإمبراطورة فرح قائلة: «نحن قلقون عليكم جدًا.. آمل أن ينتهى ذلك بسرعة يا جيهان.. نحن معكم بقلوبنا»، لقد مس اهتمامهما أوتار قلبى، لكن القلق انتابنى إزاء صورة مصر فى الخارج بسبب هذه الاضطرابات التى بدأتها مثل هذه القلة.

لقد تسببت أحداث الشغب فى قطع الرئيس تيتو زيارته الرسمية. وفى ١٩ يناير عاد أنور بسرعة من أسوان. وسألته: «ماذا ستفعلون؟»، قال: «سأعيد الدعم»، قلت: «لكنكم سوف تتراجعون بذلك عن أوامر حكومتكم»، فرد قائلًا: «أيهما أفضل.. مواصلة تنفيذ أمر خاطئ أم الاعتراف بأن اللجنة الاقتصادية أخطأت؟»، قلت: «أنت على حق يا أنور».

وبمجرد أن أعلن أنور إعادة الدعم هدأ الناس. لكننا جميعًا أدركنا أننا نعيش فى زمن مستعار. اقتصادنا مفلس تقريبًا، هكذا كان إحساسنا، واستمرت الحياة اليومية فى القاهرة فى مجراها. وعندما عدت من اجتماعى مع المجموعة النسائية فى مساء ٩ نوفمبر قالت ابنتى الصغرى نانا فى هياج بالغ: «مامى، مامى هل سمعت الأخبار؟» توقف قلبى، لقد كانت ابنتى نهى على وشك وضع مولودها الثانى، فهل حدث شىء لها؟ قلت بحدة: «ماذا حدث يا نانا؟» قالت وصوتها فيه مسحة من الشك: «بابى سيزور القدس».



كان أنور يتوقع ألا يوافقه الكثيرون على مهمته وكان أيضًا يدرك المخاطرة التى يقدم عليها



قلت: «والدك سيذهب إلى ماذا؟».

ردت نانا بسرعة قائلة: «لقد أعلن ذلك فى خطابه للبرلمان صباح اليوم.. لقد عرض أن يتوجه إلى القدس».

قلت: «يذهب إلى القدس؟ أنور؟.. أين هو يا نانا؟».

قالت: «فى الدور الثانى».

واندفعت صاعدة السلالم وقلت: «أنور.. هل صحيح ما قالته لى نانا؟».

فأومأ أنور برأسه قائلًا: «نعم.. لقد قبعنا طويلًا فى عواصمنا نصدر التحذيرات إلى إسرائيل لاعادة الأراضى المحتلة، وصورتنا لدى العالم مضحكة وقبيحة. إننا نطالب بإعادة أرضنا لكننا نرفض أن نطلب ذلك من هؤلاء الذين يحتلونها. وقد قررت أن أذهب إلى الإسرائيليين مباشرة. ما هو الخيار الآخر لدى؟».

وقال أنور: «إذا لم نستعد سيناء سلميًا فلا بد إذن من أن نمضى فى تهديدنا، ونخوض الحرب مع إسرائيل مرة أخرى. ويفقد المزيد حياتهم. هل هذا ما نريده لشعبنا؟ أن نضحى بحياة أبنائنا فى حروب لا يمكن لأى دولة الانتصار فيها، أن ننفق أموالنا على الأسلحة بدلًا من استخدامها فى إعادة بناء بلدنا ونساعد الشعب؟ هذا خراب يا جيهان.. الخراب سوف يستمر. لا بد أن أستكشف كل وسيلة للسلام بين بلدينا، بل وللمنطقة كلها».

وسألته: «ولكن لماذا تذهب إلى هناك بنفسك يا أنور؟»، فهز رأسه قائلًا: «لا أستطيع انتظار مؤتمر السلام فى جنيف؟.. من الذى يعرف ما الذى سيأتى به مؤتمر السلام أو حتى ما إذا كان سينعقد؟ إن شهورًا وربما سنين سوف تضيع بينما كل واحد يجادل فى جدول الأعمال والوفود واشتراك الفلسطينيين. لا يا جيهان، الطريق الوحيد للبدء فى البحث عن السلام هو أن يتحدث بلدانا بالإخلاص والصراحة كل مع الآخر. وأنا مستعد لعمل ذلك».

هززت رأسى وأنا لا أصدق.. سلام مع إسرائيل؟ لم يذهب زعيم عربى واحد إلى إسرائيل. لكن زوجى كان رجلًا غير عادى. قلت وأنا ألف ذراعى حوله وأقبله: «آه.. أنور.. تفكر فى إمكانية السلام مع إسرائيل، ولكن ماذا لو رفض رئيس الوزراء بيجن أن يجتمع معك؟»، فرد قائلًا: «تلك ستكون مشكلته.. الخطوة المقبلة ستكون عليه».

وشعرت بالحيرة، ولكى أعود بنفسى إلى الأرض فتحت التليفزيون لمشاهدة الأخبار تنقل اقتراح أنور التاريخى. كان يقول فى هدوء كما لو كان يتحدث عن الطقس: «إننى مستعد للذهاب إلى آخر العالم إذا كان ذلك سيحول دون قتل أو جرح مجرد جندى واحد أو ضابط واحد من أولادى.. أقولها الآن إننى مستعد للذهاب إلى آخر العالم. سوف تندهش إسرائيل عندما تسمعنى الآن أمامكم، أنا مستعد للذهاب إليهم فى عقر دارهم، إلى الكنيست نفسه للتحدث إليهم».

أما أعضاء البرلمان فقد بدت عليهم الدهشة، كما لو كانوا لا يستطيعون تصديق آذانهم. كيف يمكن لأى منهم أن يستوعب بسرعة مثل هذه الفكرة الدرامية والخيالية. فلم يكن بين مصر وإسرائيل أى شىء سوى العداء والشك. ولم يتحدث رسميًا قط حتى ذلك الوقت أى منهما إلى الآخر. فى مصر كان مخالفًا للقانون أن يتعامل أى مسئول مع أى إسرائيلى على أى مستوى مهما كان. لقد سبق أن رفضنا حتى الاعتراف بوجود إسرائيل. وفى خرائط المنطقة كان يشار إلى إسرائيل بوضوح على أنها «أرض فلسطين المحتلة». وهذا هو المكان الذى أعلن زوجى لتوه أنه مستعد للذهاب إليه.

كما لاحظت أن أعضاء البرلمان يصفقون بهدوء، حتى ياسر عرفات الذى كان فى زيارة للقاهرة انضم إليهم. وقال الكثيرون بعد ذلك إن زعيم منظمة التحرير الفلسطينية جلس متجهم الوجه من شدة المفاجأة، لكنه ككل السياسيين الحاضرين صفق قبل أن تتضح معانى الاقتراح الكامنة، والكلمات التى تمثل الأمل لدى الكثيرين من المصريين أخذها الفلسطينيون على أنها كلمات رجل خادع. وبعد خطاب أنور انسحب عرفات من البرلمان وغادر مصر عازمًا ألا يعود.

وظلت الصدمة تهز البلاد لمدة أسبوع. لم يصدق أى أحد أنور. لا أحد سواى. وبينما أنور ينتظر ردًا من مناحم بيجين لم يتوقف جرس التليفون فى منزلنا عن الرنين. سأل صديق: «هل صحيح أن الرئيس مستعد فعلًا للتوجه إلى القدس، أم أنه مجرد كلام؟... من المؤكد أنه سيفقد شعبيته إذا ذهب إلى هناك».

وقلت ردًا عليه: «أنت لا تفهم زوجى.. إنه غير عابئ بالشعبية ولكن بما هو حق لبلدنا». وقال متصل آخر: «قولى لى إن أنور لن يذهب فعلًا إلى القدس». وأجبته قائلة: «بل سيفعل إذا وافق بيجين». قال صديقى: «لا تقولى ذلك يا جيهان». قلت: «لماذا لا.. يتعين على شخص ما أن يمهد الطريق للسلام لكى يواصل الآخرون المسيرة».

وكان جيراننا العرب أيضًا مصعوقين. إن أنور علم أنهم سيقاومون اقتراحه، ولذلك اتخذ قراره بمفرده دون استشارة واحد منهم. وإن كان لديه أمل أكبر فى إقناع رفيقه فى السلاح الرئيس السورى حافظ الأسد لتأييد موقفه. وبعد أيام قليلة من خطابه فى البرلمان طار أنور إلى دمشق ليعود فقط خائب الأمل ومترنحًا. وقال لى: «تناقشت وحاولت مع حافظ حتى الرابعة صباحًا». قالها والإرهاق يكسو وجهه، وأضاف: «أبلغته أننى سأتحمل المسئولية الكاملة عن تصرفاتى. فإذا نجحت وتأكد السلام، عندئذ سيكون انتصارًا لنا جميعًا، وإذا فشلت سأتحمل وحدى عواقب فشلى».

غير أن حافظ استمات فى معارضة مبادرة أنور السلمية، وانقلب حتى على أنور نفسه. وبمجرد عودة أنور من سوريا بدأ راديو دمشق يشن حملة طعن على زوجى، وأى واحد اعتزم مصاحبته فى رحلته المقترحة. وهدد راديو دمشق قائلًا أى واحد يطأ بقدمه القدس المحتلة يكون بذلك خائنًا للعرب، وسوف يتحمل وطأة كل الدم العربى الذى أريق لتحرير فلسطين. وقد شعرت بالإحباط من تهجمات حافظ الأسد. فقد كان مقربًا جدًا لأنور وأكل مع أسرتى على المائدة، وضحك معنا، والآن يهدد صديقه القديم بالقتل، ولم أكن أعرف حتى بعد اغتيال أنور أن الحكومة السورية بحثت اعتقال أنور فى دمشق لمنعه من مواصلة سعيه إلى السلام، وفى الدقيقة الأخيرة فقط أدرك الأسد أن هذا إجراء خطير وغير ذى جدوى.

أيضًا عارض بعض السياسيين المصريين اقتراح أنور السلمى. وعشية مغادرة أنور إلى سوريا للاجتماع مع الرئيس الأسد، استقال إسماعيل فهمى، وزير الخارجية، بشكل مفاجئ من منصبه لدرجة أن حقائبه ذهبت إلى دمشق بدونه. وقد صدمت لاستقالته بالرغم من أنى أفهم أنه لا يمكن أن يكون كل واحد بعيد النظر مثل زوجى. وحتى ذلك الوقت كان شعورى بالإحباط مسيطرًا، وساورنى الشك فى أن إسماعيل ربما يكون بذلك يسعى إلى حماية نفسه فى حالة فشل مهمة أنور من أجل السلام. وفى الوقت نفسه أحسست أن هناك خسارة شخصية أيضًا. فقد كان أنور وأنا دائمًا صديقين مقربين لوزير الخارجية وزوجته عفاف. وعندما قابلت عفاف مرة أخرى بعد استقالة زوجها، تصافحت معها لكنى لم أزرها كصديقة مرة ثانية.

كان أنور يتوقع ألا يوافقه الكثيرون على مهمته. وكان أيضًا يدرك المخاطرة التى يقدم عليها سياسيًا وشخصيًا، وكذلك كنت أنا الأخرى. وقد حذرته قائلة: «إذا لم يوافق الشعب على رغبتك فى السلام سيتعين عليك أن تستقيل من منصبك». ورد علىّ قائلًا: «أعلم ذلك، وأوافق عليه يا جيهان، لكن السلام يجب أن يكون أكثر أهمية من السياسة. بالتأكيد سوف أضطر لدفع الثمن. ولكن فى النهاية مصر هى الكسبانة».

فى ١٥ نوفمبر وجّه مناحم بيجين، رئيس وزراء إسرائيل، دعوة رسمية إلى أنور. وأعد ممثلو مصر وإسرائيل تفاصيل الزيارة. وعلى خلاف التقاليد الخاصة بيوم السبت عند اليهود، اختار أنور أن يهبط فى إسرائيل بعد غروب الشمس يوم السبت ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، وكان اليوم التالى هو عيد الأضحى عندنا. وكان مقررًا أن يؤدى أنور صلاة العيد فى المسجد الأقصى فى القدس، ثم يزور كنيسة عيد الصعود المسيحية. وبعد الظهر يلقى خطابه فى الكنيست.

وسألته متوسلة إليه: «أنور، من فضلك، أيمكن أن ترتدى سترة واقية من الرصاص فى القدس؟»، رفض قائلًا: «منذ سنوات طويلة كان هناك شك كبير بين مصر والإسرائيليين. إن جنديًا قد يدخل بيت عدوه مستعدًا لأى اعتداء عليه، لكننى سأدخل إسرائيل بروح السلام».



بيجن يتحدث أمام الكنيست فى حضور السادات



كان يعلم مثلى جيدًا أن هناك من يعارضون هذا السلام بنفس قوة تأييده له



لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها بالإحباط بسبب عناد أنور. إنه كان يعلم مثلى جيدًا أن هناك من يعارضون هذا السلام بنفس قوة تأييده له. ومن الممكن أن يقتله الصهاينة أو المتطرفون الإسلاميون أو الفلسطينيون. كنت مقتنعة أن زوجى لن يعود من القدس حيًا.

لم أرفع عينى من على أنور عندما تجمع أفراد أسرتنا فى الإسماعيلية قبل أن يغادرها بأيام قليلة. وأخذنا صورة عائلية بعد أخرى، وأنور يضحك وهو يلقى بحفيدنا الصغير شريف فى الهواء مرة بعد الأخرى. وكلما كان أنور يخرج شريف من المياه كان الطفل الصغير يصمم على إلقاء نفسه فيها. وقد رسمت فى ذهنى كل تفاصيل وملامح وجه أنور. لم يجهر أى منا بأى شىء ولكننا جميعًا أدركنا أنها ربما تكون اللحظات الأخيرة التى نلتقى فيها معًا.

وقال أنور: «تعالى يا نانا.. تقدمى يا نهى.. صورة أخرى.. اقتربا أكثر.. عانقا بعضكما».

ولم يتوقف جرس التليفون عن الرنين، والخطط تتغير كل دقيقة، أنور سيقلع من المطار فى الصحراء بجانكليس. هل سيستقل الهليكوبتر الصغيرة إلى المطار؟ أم الهليكوبتر الكبيرة؟ ووصل الوفد المسافر معه، ومن بينهم الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء، والدكتور بطرس غالى ثالث وزير خارجية له فى أسبوع واحد، حيث استقال محمد رياض بعد تعيينه خلفًا لإسماعيل فهمى باثنتى عشرة ساعة. وجرس التليفون لا يزال يرن آخذًا أنور منا باستمرار. وأردت أن أقطع السلك لكننى لم أستطع طبعًا. لم أشعر من قبل أننى ممزقة بهذا القدر، ففى الوقت الذى أشعر فيه بسعادة بالغة لأنه سيقوم بمهمته السلمية، كنت قلقة جدًا على حياته.

وأخيرًا جاء الوقت. وعلى سلالم الهليكوبتر قلت له: «ربنا معاك يا أنور.. ربنا يبارك فيك.. لا إله إلا الله».

ورد قائلًا: «ومحمد رسول الله».

وأقلعت الهليكوبتر وأنا وأطفالى واقفون فى الصحراء، والرياح تلسع أعيننا وجلدنا بالرمال. ولم نملك سوى أن نذرف الدموع. وظل شريف يسألنى: «ما الحكاية يا جدتى؟ ما الحكاية؟»، ولما لم أرد عليه اتجه إلى والدته يسألها: «ما الحكاية يا أماه؟» ولم تستطع نهى أيضًا أن ترد عليه.

وجلست أحملق فى شاشة التليفزيون وجسمى مشدود لعدة أيام، لدرجة أننى لم أستطع تحريك عنقى بعد ذلك. ويقول المذيع، وهو نفسه غير قادر على مداراة أثر عدم التصديق فى صوته، إن الطائرة المصرية ٧٠٧ التى تقل أنور إلى إسرائيل تستعد الآن للهبوط فى مطار بن جوريون، فموعد وصول الرئيس هو الساعة ٨، وقد حان وقت الوصول. كنت أهدئ شريف حفيدى الذى سقط على الدرجات الأمامية، وقطع شفته بشدة، ونحن نندفع عائدين إلى القاهرة لمشاهدة وصول أنور على التليفزيون. وأرسلت ابنتى نهى التى كانت على وشك وضع مولودها الثانى بعد أسابيع قليلة إلى بيتها للراحة، وأبقيت شريف معى. بدأنا نشاهد أنا وشريف طائرة أنور تهبط على الممر ونشاهد سلم شركة طيران «العال» الإسرائيلية يتجه نحو الباب الأمامى للطائرة. وكان شريف لا يزال يصرخ من الألم وهو قابع فى حجرى، بينما انهمرت دموعى، دموع الخوف وعدم التصديق. زوجى فى إسرائيل... شىء غير ممكن.

وعزفت موسيقى الاستقبال وينفتح باب الطائرة. ها هو.. إن قلبى يدق وأنا أشاهده ينزل على سلم الطائرة. كان يبدو واثقًا وهادئًا. ما الذى يشعر به فى أعماقه؟ بعد ذلك سوف يقول لى: «شعرت أن الله أرسلنى فى هذه المهمة السلمية.. وعندما وطأت قدمى لأول مرة التراب الإسرائيلى شعرت أننى لست من هذا العالم ولكننى شعرت كأننى الطير».

شعرت وأنا أشاهده كأننى أيضًا أحلم، ولكن على وشك أن يتملكنى كابوس. وكم تمنيت أن تكون عيناى كاميرتين تليفزيونيتين لكى أستطيع مسح الجماهير لضبط المشتبه فيهم حتى أستطيع رصد أى مسدس أو بندقية قبل أن يفوت الأوان.

وقد رتبت لأنور حراسة جيدة بالطبع، فقد تم إرسال مزيد من قوات الأمن إلى إسرائيل قبل ذلك بيوم، للتأكد من ترتيبات الأمن. وصحبه كثير من رجال الأمن أيضًا، لكنى كنت خائفة أكثر منهم. فإن كان هو رئيسهم فهو زوجى.

لا أستطيع أن أصدق عينى. أنور يصافح إفرايم كاتزير رئيس إسرائيل، ومناحم بيجين رئيس الوزراء. هناك يظهر على نفس شاشة التليفزيون زعماء دولتين متعاديتين فقد الآلاف من أبنائهما حياتهم. وأسمع نشيدنا القومى «بلادى بلادى» تعزفه الفرقة العسكرية الإسرائيلية، وأرى الأعلام المصرية تلوح جنبًا إلى جنب مع نجمة داود الإسرائيلية. كيف كان ذلك؟

وكانت آخر مرة شاهدت فيها العلم المصرى يرفرف بجوار العلم الإسرائيلى من ١٤ عامًا فى ألمانيا حيث كان أنور يتولى رئاسة البرلمان. وكنت أنا قد توجهت إلى هناك لقضاء إجازة. وعند عودتنا إلى الفندق من نزهة ذات يوم بعد الظهر رأيت منزعجة علمنا بجوار العلم الإسرائيلى على واجهة الفندق. وقلت لزوجى فى ذعر: «تعال بسرعة يا أنور.. لا بد أن نتصرف بسرعة». ورد قائلًا: «إلى أين سنذهب؟» قلت: «يوجد إسرائيليون فى هذا الفندق.. لا بد أن نرحل فورًا» وقال أنور: «لا يمكننا أن نرحل إذ لم نعرف بالضبط إلى أين سنذهب. سنضع خطة ونرحل غدًا»، لكنى أعلنت احتجاجى قائلة: «لكنهم سيقتلوننا إذا رأونا»، لكن أنور رفض واضطررت أنا لأن أبيت الليل دون أن يغمض لى جفن. فمن المؤكد اننا سوف نقتل فى أسرتنا.

وبينما يقترب عزف نشيدنا القومى فى القدس من النهاية سمعت طلقات الرصاص. وحسبتها موجهة إلى أنور، وأمسكت شريف وأحكمت قبضتى عليه لدرجة أنه نسى الألم فى شفته للحظات. وأحسست كأننى أرى فجوات فى شاشة التليفزيون، لكن زوجى لم يسقط وأدركت أن تلك الطلقات هى الإحدى والعشرون طلقة للتحية. وبدأت أعد جزئيات الوقت التى ظل زوجى فيها حيًا، حيث قضى أول عشر دقائق وبقيت عشر دقائق أخرى يتعين قضاؤه وسط الجموع.

كنت أسمع جرس التليفون يدق خافتًا مرات ومرات لكنى لا أرد عليه. لم أكن لأصرف تركيزى ولو لدقيقة واحدة. وكانت رسائل أصدقائنا المتوالية تقول: «لا نريد إزعاجها.. لكن بلغها من فضلك أننا معها ونصلى من أجل الرئيس.. إننا اهتززنا من الأعماق بسبب ما نراه».

كان هناك فى استقباله موشى ديان وأريل شارون وجولدا مائير ومردخاى جور كلهم كانوا فى صف المستقبلين الحكوميين، السابقون منهم والحاليون، فى المطار. وأنور يتجه نحوهم مصافحًا إياهم ومازحًا وضاحكًا. كنت أجهد نفسى فى قراءة ما تنطق به شفتاه وشفاههم. ما الذى يقوله كل منهم للآخر؟ يبدو أنهم يحيى كل منهم الآخر كالأصدقاء القدماء. وإذا كانت الحرب سخيفة وغير عقلانية فإن هذا المشهد السلمى يجعلها أكثر من ذلك. أريل شارون، الجنرال المفزع الذى كسر دفاعاتنا فى حرب ١٩٧٣ وقاد القوات الإسرائيلية عبر القنال، يشد الآن على يد أنور بحماس وحرارة شريكين قديمين فى المعركة يلتقيان من جديد.

فى وقت لاحق أبلغنى أنور أنه مازح شارون بقوله: «كنت على وشك سد الثغرة التى أحدثتها فى خطوطنا تمامًا لكنى لم أستطع الإمساك بك»، وعلى الشاشة رأيت شارون يعتدل ضاحكًا وقائلًا: «أنا سعيد لتحيتك كضيف فى بلدنا»، وبينما أنور يتجه إلى جولدا مائير حبست نفسى. كنت قد سألت أنور قبل أن يقلع إلى القدس قائلة: «من فضلك يا أنور أبذل جهدًا خاصًا مع مسز مائير». ونظر إلىّ بدهشة قائلًا: «أوه.. يا جيهان.. كأنك لا تعرفيننى هل تعتقدين أننى سأبذل جهدًا أقل معها لأنها ليست رجلًا؟».

لكننى أكدت له قائلة: «لا يا أنور، لا.. إنى أعرفك، لكن أحيانا يسىء الناس فهمك.. إنك تحتفظ بأحاسيسك لنفسك وأحيانًا لا تنطق على الإطلاق. إن إناسًا مثل مسز مائير لا يعرفونك جيدًا ربما يعتقدون أنك غير ودود وتنقصك الحماسة».

وقد رد ساخرًا قائلًا: «سوف ترين ما سأبذله من جهد مع مسز مائير من أجل خاطرك فقط يا جيهان». وشعرت عند ذلك بالحرج متذكرة كم من مرة فى سعيى من أجل حقوق المرأة ضربت لأنور أمثلة بجولدا مائير وأنديرا غاندى كسيدتين ناجحتين وشجاعتين. كل منهما قادت بلدها خلال الحروب. مسز مائير خلال حرب ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل، وأنديرا غاندى خلال الحرب بين الهند وباكستان. وكلاهما حققت النصر. والآن أنور على وشك تحية مسز مائير التى أكن لها الكراهية والاحترام فى وقت واحد.

على شاشة التليفزيون أرى أنور يمسك بيد مسز مائير وأرى إصغاءها بتركيز إليه. وكانت أذناى تئن من التوتر وحب الاستطلاع. وفجأة علت وجهها ابتسامة عريضة، ولا شعوريًا ابتسمت أنا أيضًا.

وفى وقت لاحق أبلغنى أنور بما دار بينهما من نقاش حيث قال لها: «أنت معروفة جدًا فى بلدنا يا مسز مائير.. هل تعلمين بماذا توصفين؟».

قالت مائير: «لا.. بماذا؟».

قال: «أقوى رجل فى إسرائيل». ولذلك ضحكت مسز مائير وردت قائلة: «إنى آخذ ذلك على أنه مديح يا سيدى الرئيس».

وعندما أبلغنى أنور بما قاله ارتعشت ابتسامتى لأنى كنت غير متأكدة أنه كان يقصد بذلك المديح. لكنه من المرجح أن يكون قد قصد ذلك. وبمجرد أن التقى وجهه بوجهها، كما أبلغنى بعد ذلك، قرر أن يعفو وينسى. وبدلًا من التمسك بالماضى، أراد أن يفتح صفحة جديدة بين مصر وإسرائيل لبدء حقبة جديدة للسلام. وبدا كما لو كان سينجح.

وعلى طول الطريق إلى القدس كانت الجماهير المتحمسة تهتف «سادات.. سادات»، وكانت الدموع تنساب من عيون الكثيرين على خدودهم. وقد كان من الصعب على الشعب الإسرائيلى أن يصدق أن زعيم الدولة العدو لهم أتى إليهم مسالمًا مثلما كان الشعب فى مصر عندما أعلن أنور أنه سيتوجه إلى القدس. وكانت بعض الجماهير تمسك بالصحف، وكان مانشيت الجيروزالم بوست: «مرحبًا بالرئيس السادات». وكانت هناك نساء، كثير من النساء بين الجماهير وأمهات يحملن أطفالهن الرضع جئن لرؤية رجل السلام. وكان منظر هؤلاء النساء والأطفال أكثر ما يحرك المشاعر لدى أنور. وقد قال لى بعد ذلك: «إنه كان كما لو أن كل أم تقول لى: (رسالتك السلمية وصلتنا ونحن موافقون. انظر إلى أطفالنا واعلم أننا لا نريد مزيدًا من الحروب)».

فى القاهرة كنت أحتضن شريف وأعطيه قرصًا آخر من النوفالجين. وقد وصل أنور بسلام الآن إلى فندق الملك داود حيث يقيم الوفد المصرى. وأستطيع الآن أن أستريح من يقظتى لأننى سأحتاج إلى كل قواى فى الصباح.

بالنسبة لأنور كانت للصلاة فى المسجد الأقصى، ثالث الحرمين الشريفين، منزلة فى الإسلام ذات مغزى روحى كبير لأن الحديث الشريف يقول إن الصلاة فى المسجد الأقصى تعادل ألف صلاة فيما سواه. لكنها أيضًا مخاطرة كبيرة. إن قتل أول زعيم مسلم يصلى على قبة الصخرة منذ قيام إسرائيل، إن قتل زوجى وهو يصلى فى هذا المكان المقدس سيكون أكبر إغراء لأعداء السلام المتشددين مع إسرائيل. وكنت أدعو الله وأنا أحتضن شريف قائلة: «يا رب اشمل زوجى بعنايتك» ثم أخرّ ساجدة.

وبعد منتصف الليل مباشرة أيقظنى تليفون طارى من زوج ابنتى حسن مرعى قائلًا إن قلق نهى على والدها فى رحلته إلى القدس جعل مخاض الولادة يأتيها قبل موعده، وتم نقلها إلى المستشفى.. وأسرعت إلى المستشفى فوجدت والدة حسن وخالته إلى جانبها بالفعل. وكنت أنا وأنور قد فاتنا حضور مولد شريف أول حفيد لنا لأننا كنا فى زيارة لإيران. أما الآن فأنا على الأقل فى القاهرة. وقلت لنهى: «استريحى» ماسحة بيدى على شعرها. «عما قليل سينتهى المخاض». وبعد حالة مخاض عسيرة وضعت طفلة جميلة. وقلت لأمها ضاحكة: «إنها قبيحة جدًا.. لكنها بشرة خير.. لا بد أنها ستكون بشير السلام».

واتصلت بأنور فى القدس حيث كان على وشك مغادرة الفندق للصلاة فى المسجد الأقصى، وأخبرته: «أصبح لنا حفيدة.. إن بشرتها خمرية وليست جميلة جدًا.. إنها شبهك».

وضحك أنور قائلًا: «إذا كانت داكنة مثلى فلا بد أن تكون حسنة المظهر حقًا».

وفى المستشفى كنا نشاهد زيارة أنور لقبة الصخرة، كنت أشعر بالدوار المصحوب بالإنهاك والصراع. كان يجب أن يجلب إنجاب حفيدة لى أعظم فرحة، لكن القلق كان لا يزال يخيم علينا.

احذر يا أنور. انظر لترى من الذى يصلى على يمينك وعلى يسارك، أعلم أن قوات الأمن فى إسرائيل قد فتشت المصلين الذين سوف يؤدون صلاة عيد الأضحى مع أنور، لكنى أعلم أيضًا أن المتشددين مهرة جدًا. كنت أمسح بعينى المصلين بينما كان أنور يصلى. ومرت عشر دقائق ولم يحدث شىء. ولكن بينما أنا جالسة يتملكنى التوتر فى القاهرة، كان أنور يحقق حلمًا فى القدس.

بعد ذلك قال لى أنور: «لم أستطع أن أصدق أننى كنت بالفعل أقف فى المسجد الأقصى وسط المصلين.. هل كان ذلك يحدث بالفعل لى؟».. وتمنيت أن يحدث ذلك لكل المسلمين. ومرت عشر دقائق أخرى وأرى زوجى يخرج سالمًا ويبدأ السير عبر الساحة إلى قبة الصخرة التى نؤمن بأن النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، صعد من فوقها إلى السماء فى رحلته الليلية الشهيرة «المعراج». احذر يا أنور.. فقد رأيت مجموعة من المتظاهرين الفلسطينيين يلوحون بقبضات أيديهم نحوه ويسبونه بأعلى أصواتهم. وطاردتهم قوات الأمن بعيدًا فى أزقة وحوارى القدس القديم. ونجا أنور من الموت خلال عشر دقائق أخرى.

وعدت بصعوبة إلى الواقع فى القاهرة، فقد كنت على موعد لتناول الشاى بعد الظهر مع ضيفتى الرسمية مدام بورقيبة، قرينة رئيس تونس. فزيارتها كانت مقررة منذ مدة طويلة، قبل أن يعلن زوجى عن رحلته إلى إسرائيل بكثير، كنت قد ألغيت اجتماعى معها الليلة السابقة لكى أتمكن من رؤية وصول أنور إلى القدس. ولا يمكن أن أكون فظة مرة ثانية، وبسرعة ارتديت ملابسى للتوجه إلى حجرة الاستقبال فى أحد الفنادق حيث كان موعد المقابلة قبل قليل من بدء خطاب أنور فى الكنيست. وقلت لابنتى الصغرى: «ارعى أحوال شريف يانانا». وعندما وصلت إلى الاستقبال وجدت الجميع هناك ومن بينهم مدام بورقيبة يريدون أن يشاهدوا خطاب أنور، وبامتنان أسرعت عائدة إلى البيت.

عندما دخل أنور الكنيست الساعة الرابعة مساء تم استقباله بحفاوة بالغة استمرت وقتًا طويلًا.

لقد أدهشنى كم كان يبدو وسيمًا فى بدلته السوداء يقف منتصبًا شجاعًا أمام البرلمان الإسرائيلى. وقلت لشريف وهو يتلوى فى حجرى «انظر إلى جدك وكن مثله».

وعلى مدى ساعة كنت واحدة من ملايين فى العالم يشاهدون ويستمعون إلى المستحيل: زعيم مصر يقدم غصن السلام إلى الهيئة الحاكمة لإسرائيل ويقول بالعربية، بينما المترجم يجتهد للحاق به فى الترجمة إلى العبرية: «أتيت إليكم اليوم وأنا أقف على أرض صلبة لتشكيل حياة جديدة، ولإرساء السلام».

ويضيف: «إننا جميعًا نحب هذه الأرض. أرض الله، كلنا مسلمين ومسيحيين ويهود نعبد الله.. وتعاليم الله ووصاياه هى الحب والإخلاص والأمن والسلام».

هزنى مثل آخرين لا يمكن حصرهم نداؤه البليغ لإنهاء الحرب، قال: «أى روح تفقد فى الحرب هى روح إنسان سواء كان عربيًا أم إسرائيليًا. أى زوجة تصبح أرملة هى إنسانة من حقها أن تعيش حياة أسرية سعيدة سواء كانت عربية أم إسرائيليًا، وأى طفل برىء يحرم من رعاية وعطف والديه هو من أطفالنا، إنهم أطفالنا سواء كانوا يعيشون على أرض عربية أم إسرائيليًا.. من أجلهم جميعًا.. من أجل الأجيال القادمة، من أجل بسمة على وجه كل طفل يولد فى أرضنا، من أجل كل ذلك اتخذت قرارى بالحضور إليكم رغم كل المخاطر لألقى خطابى».

كانت الكاميرا تمر على وجوه جامدة للزعماء الإسرائيليين. أبا إيبان وزير الخارجية السابق. بارليف مصمم خط الدفاع الذى كان المفترض أنه منيع، عيزرا وايزمان وزير الدفاع فى ذلك الوقت الذى بدا وجهه شاحبًا جدًا. بعد ذلك علمت أن وايزمان أصر على مغادرة سريره بالمستشفى حيث كان يتماثل للشفاء من كسر رجله وكسور عديدة فى ضلوعه فى حادث سيارة لكى يحضر. وقال لأطبائه: «ستأخذون حقائب معداتكم املأوها بالهيروين أو الكوكايين أو الحشيش وأى شىء آخر تحبونه.. وعندئذ ستأتون معى وتأكدوا أننى قادر على الوقوف على قدمى ٢٤ ساعة على الأقل». وقد استقل طائرة هليكوبتر وجلس على كرسى متحرك وبيده عصاه يتوكأ عليها للذهاب إلى الكنيست. إنه هناك وما يسمعه ويسمعه كل واحد يلقى ارتياحًا لدى الإسرائيليين، بينما يحدث

عندما دخل أنور الكنيست تم استقباله بحفاوة بالغة استمرت وقتًا طويلًا





السادات وكارتر وبيجن فى البيت الأبيض

صدمات فى كل أنحاء العالم العربى.

ويقول أنور للكنيست: «تريدون أن تعيشوا معنا فى هذا الجزء من العالم.. وبكل إخلاص أقول لكم مرحبًا بيننا بكل الأمن والأمان. هذا فى حد ذاته نقطة تحول هائلة وعلامة من علامات تغير تاريخى حاسم، اعتدنا أن نرفضكم. ولدينا أسبابنا ومخاوفنا، نعم.. اليوم فقط أقول لكم وأعلنها إلى كل العالم أننا نقبل العيش معكم فى سلام دائم يقوم على العدل. لا نريد أن نحيط أنفسنا

أو أن نحيطكم بصواريخ مدمرة جاهزة للإطلاق ولا بقذائف الأحقاد والضغائن..».

هذه هى الكلمات التى كانت تفزع الدول العربية منها: الاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود. إننى معجبة بزوجى جدًا لشجاعته فى مواجهة حقيقة إسرائيل، لكننى عاجزة عن المساعدة وأشعر بقشعريرة. وبالفعل بدأ الثمن الذى يتعين عليه أن يدفعه. ففى اللحظة التى هبطت فيها طائرته على الأرض الإسرائيلية قطع القذافى علاقاته الدبلوماسية مع مصر، بينما قام الليبيون الساخطون بحرق مكتب العلاقات المصرية فى طرابلس تمامًا. وفى اللحظة التى وطأت فيها قدم أنور الأرض الإسرائيلية دعا المؤذنون فى دمشق المصلين السوريين إلى عدم الصلاة من أجل السلام بل صلاة الكراهية والغضب، وقام الفلسطينيون فى المخيمات قرب دمشق بإحراق صور أنور وتم إلقاء قنبلة على السفارة المصرية. كانت حمى الكراهية تنتشر فى كل أنحاء الشرق الأوسط والبحر المتوسط فى اليونان اقتحمت مجموعة من الطلبة العرب السفارة المصرية قبل أن يطلق البوليس النار عليهم فيقتلهم أو يصيبهم. وفى إسبانيا نجح الفلسطينيون فى احتلال

سفارتنا واحتجزوا السفير مؤقتًا كرهينة وهو محمود عبدالغفار عم واحد من أزواج بناتى. وبدأت العاصفة فورًا ليس فقط فى الدول العربية بل أيضًا فى إسرائيل.

كان التوتر يكسو وجوه القادة الإسرائيليين بينما كان أنور يحدد شروط السلام. فقد قال بحزم: «دعونى أبلغكم دون أدنى تردد أننى لم أحضر إليكم تحت هذا السقف لأطلب أن تنسحب قواتكم من الأراضى المحتلة.. فالانسحاب الكامل من الأراضى العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ حقيقة منطقية لا خلاف عليها. ويجب ألا يتوسل أحد لذلك.. فليس هناك سلام يمكن أن يقوم على احتلال أرض الآخرين. وإلا سيكون سلاما غير جاد».

رأيت عيزرا وايزمان الذى يتحدث العربية بطلاقة ولا ينتظر الترجمة إلى العبرية يدون ملحوظة بسرعة ويمررها إلى مناحم بيجين وموشى ديان، وقد قرأها كل منهما وأشارا بالموافقة، وعلمت بعد ذلك أن هذه الملحوظة كانت تقول «لابد أن نستعد للحرب».

لم يتملص أنور من القضية الفلسطينية أيضًا. فقد قال فى الكنيست «هنا أقول لكم سيداتى، سادتى إنه لا فائدة من الامتناع عن الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقه المشروع فى إقامة دولة وحقه فى العودة.. يجب أن تواجهوا الحقيقة بشجاعة كما فعلت أنا. لا يمكن أبدًا أن يكون هناك أى حل للمشكلة بالتهرب منها أو مقابلتها بأذن صماء. السلام لا يمكن أن يستمر إذا حدثت محاولات لفرض تصورات وهمية أدار إليها العالم ظهره وأعلن بالإجماع دعوته لاحترام الحق والحقائق».

لقد ذرفت عيناى دموع الفخر عندما رجع أنور فى النهاية إلى العهد القديم للتوراة وإلى قرآننا الكريم لعرض معتقداتنا المتشابهة، وقال أنور: «أكرر مع زكريا: الحب والحق والعدل» ومن القرآن الكريم اقتبس هذه الآية: «نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أنزل إلى موسى وعيسى والنبيين من قبلهم لا نفرق بين أحد منهم».. وقال أنور ناظرًا فى كل أركان الكنيست: «هكذا نتفق» ثم ألقى التحية: «السلام عليكم».

«كان قلبى معاك طول ما أنت هناك» شعار كانت ترديه الجماهير بصوت عال فى شوارع القاهرة عندما عاد أنور إليها بعد ٤٤ ساعة من مغادرته لها. واصطف ملايين المصريين على الطريق بطول ١٢ ميلًا من المطار إلى منزلنا بالجيزة يهتفون ويصفرون وينثرون الزهور البيضاء ويزغردون ويرددون: «بالروح بالدم نفديك يا سادات» واضطر الجنود إلى وضع أيديهم فى أيدى البعض لمنع الجماهير من الإحاطة بسيارة أنور ومع ذلك كانت السيارة تسير ببطء شديد، وقال المذيع فى كل من الراديو والتليفزيون أن «الرئيس الآن فى مصر الجديدة يشق طريقه بصعوبة لأن الناس لا تدعه يسير».

واحتشد الناس فى البلكونات إذا توفرت لديهم، وإذا لم يمكنهم كانوا يقفون فوق السيارات الواقفة ويتعلقون بالأشجار وبإشارات المرور هاتفين «يا سادات.. يا سادات». وكانت طائرات الهليكوبتر تحلق فوق موكب سيارات الرئيس إحداها تحمل جمال الذى كان يسجل بالفيديو هذا الترحيب الحار بوالده. وبدلًا من أن أحاول إقحام نفسى وسط الجماهير كنت أشاهد الموقف على شاشة التليفزيون بالمنزل.

وكانت هذه المظاهرة العفوية للتعبير عن الفرح من الضخامة بحيث استغرقت الرحلة بين المطار ومنزلنا ثلاث ساعات تقريبًا بدلًا من ٢٠ دقيقة عادة. وكانت الشوارع بالقرب من منزلنا فى الجيزة مسدودة تمامًا بواسطة الجماهير التى أخذت تعزف على المزمار وتدق الطبول. لم أستطع منع نفسى عندما وقف أنور أمامى أخيرًا فى منزلنا واندفعت نحوه مطوقة إياه بذراعى ومقبلة إياه مباشرة أمام أعضاء الحكومة الذين كانوا معه فى الرحلة. وعندما غادر الوزراء استطعت أن أبلغه أخيرًا كم كنت قلقة على حياته فى كل دقيقة كان فيها فى القدس.

وابتسم أنور قائلًا لى: «إنه كان يستحق المخاطرة.. فلو لم أذهب لكان حلمى فى السلام إذن لن يصبح حقيقة أبدًا، الآن على الأقل يمكن أن نتحدث مباشرة مع الإسرائيليين».

وأدينا صلاة العشاء جماعة شاكرين الله على النهاية الناجحة لهذه الخطوة الأولى نحو السلام. ولا نعرف مدى صعوبة الخطوات المقبلة.

وبينما شمس عام ١٩٧٨ تغرب اختارت مجلة «تايم» الأمريكية أنور «رجل العام» اعترافًا بسعيه الجسور من أجل السلام. لكنه لم يكن هناك سلام، وكانت هناك إمكانيات ضئيلة لإيجاد حل. ولا أعرف أين وجد أنور الصبر لمواصلة المفاوضات. فالإسرائيليون رفضوا بكل قوة الموافقة على إعادة الأراضى العربية التى احتلوها خلال حرب ١٩٦٧ على طول قطاع غزة، ووسعوا بالفعل مستوطناتهم فى الضفة الغربية المحتلة.

وبعد اجتماعه مع بيجين فى الإسماعيلية فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧ وهو عيد ميلاد أنور قال: «إن بيجين لديه عقدة من الهلوكوست. إنه أكثر الرجال الذين قابلتهم فى حياتى تشككًا» وقال أنور وهو يصر على رفض التخلى عن رأيه «إننى أحترمه لحرصه على صالح بلده لكنه مثير جدًا للإحباط إزاء التفاوض معه».

وقلت له: «لا بد أن الله اختار رجلًا صبورًا مثلك للتعامل مع رجل معقد مثل بيجين..

لو أنى مكانك لنفضت يدى من المهمة من فترة طويلة..».

وقد وصلت عملية السلام مع إسرائيل إلى طريق مسدود. وكذلك علاقاتنا مع كثير من جيراننا العرب. وبسبب هجمات الفلسطينيين على زوجى واحتجاجاتهم العنيفة فى الدول الأجنبية أمر أنور بإغلاق كل مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية فى مصر بعد يومين من عودته من القدس، ووقتها دعا لمحادثات سلام مع كل إخواننا العرب فى فندق «مينا هاوس» بالقاهرة فى ديسمبر لكن الفلسطينيين وسوريا والعراق واليمن الجنوبية والجزائر وليبيا رفضت الحضور. وبدلًا من ذلك عقدوا مؤتمر قمة فى طرابلس فى ٢ ديسمبر صوتوا فيه على تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر.

وقاطع السوفيت محادثات السلام التى دعا أنور إليها، وأمرهم زوجى بإغلاق قنصلياتهم فى مصر، وكذلك قنصليات حلفائهم ببولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وألمانيا الشرقية. وفى الوقت نفسه كان وزير الخارجية الأمريكى سيروس فانس يقوم بجولات مكوكية بين مدن الشرق الأوسط محاولًا التوسط من أجل السلام.

صوت واحد فقط فى الشرق الأوسط هو الذى كان يعلن تأييده لأنور هو شاه إيران



يجب أن يدرك الفلسطينيون أنهم ضيعوا فرصًا كثيرة لإيجاد حل

أنه حضر ليعزز تأييده لمبادرة أنور السلمية، ليس فقط للعالم كله ولكن وبصفة خاصة للعرب. وقال الشاه لزوجى: «سأتوجه إلى السعودية لأسأل الملك خالد والأمراء السعوديين عن سبب تأخير تأييدهم لك.. لا بد أن يعترفوا بأنك تعمل من أجل المنطقة بأسرها، من أجل سلام شامل وعادل، من أجل عودة الحقوق العربية». وقد ثبت عدم جدوى رحلة الشاه إلى جدة لكن أنور لم ينس قط ما بذله الشاه من جهود لم تطلب منه من أجل زوجى. واستمر العنف، فى فبراير ١٩٧٨ لقى يوسف السباعى أحد أقدم أصدقاء أنور ورئيس تحرير أكبر صحيفة فى مصر مصرعه بإطلاق الرصاص عليه من الخلف بواسطة فلسطينيين فى نيقوسيا عاصمة قبرص، وكانت جريمة يوسف الوحيدة هى أنه اصطحب أنور فى رحلته إلى القدس. وعندما توجهت لأقدم عزائى فيه إلى زوجته وطفليه فى القاهرة أصبت بألم فى المعدة. كم هى جريمة وحشية وكم هى حمقاء. لماذا يفرغ الفلسطينيون مرارتهم فينا.

نحن أصدقاؤهم؟ لماذا لم يجلسوا معنا لوضع استراتيجية لإقامة وطنهم؟ لا بد أن نعذر الفلسطينيين لأسباب كثيرة، لأن وطنهم كان ولا يزال محتلًا. كثيرون نشأوا فى رعب مخيمات اللاجئين أو مع حقوق قليلة فى الأرض التى لا تزال إسرائيل تحتلها. ولكن فى الوقت نفسه يجب أن يدرك الفلسطينيون أنهم ضيعوا فرصًا كثيرة لإيجاد حل. وحتى الآن يعلن ياسر عرفات: «إننى مستعد للذهاب إلى إسرائيل لأقول للكنيست وللعالم كله أننا مستعدون لصنع السلام بشرط استعادة وطننا».

وإذا أعلن عرفات هذا الاستعداد فإنه سيحرج إسرائيل ويجبر القادة الإسرائيليين إما على دعوته لإلقاء خطابه أو يدينهم العالم بأسره لرفضهم عرضه للمصالحة. لكن لا.

العنف بدأ فى البداية ومستمر حتى اليوم.

وكانت الدول العربية هى الأخرى عنيدة، فقد شرح أنور مرارًا فى خطاباته أن السلام مع إسرائيل لن يكون مجرد معاهدة بين مصر وإسرائيل، لكن معاهدة تشمل كل الأراضى العربية. ومثل هذا السلام سوف يفيد المنطقة كلها وليس مصر وحدها. لكن أشقاءه العرب رفضوا الاستماع. وقال لهم أكثر من مرة: «إذا كان لديكم بديل أفضل، بلغوه لى وأؤكد لكم أننى سأتبعه». لكن لم يكن لدى أحد شىء، وهذا ليس مثيرًا للدهشة. إن العرب أدركوا مثلنا أننا لم نستطع أبدًا استعادة أرضنا بالقوة، فالولايات المتحدة لن تسمح قط بأن تهزم إسرائيل وليس بإمكان أى منا أن يهزم الولايات المتحدة. وبذلك يكون الخيار الوحيد أمامنا لاستعادة أرضنا من خلال المفاوضات السلمية، وهو خيار اكتسبه أنور بنصره على إسرائيل فى حرب ١٩٧٣. وبعد انتصارنا استطاعت مصر أن تتفاوض من موقع قوة.

لقد تشبثت بدراستى فى الجامعة مغرقة نفسى فى الإعداد لامتحانات آخر السنة قبل التخرج فى يونيو. وكانت مدتى الأولى فى المجلس الشعبى بالمنوفية وهى أربع سنوات على وشك الانتهاء وقررت ترشيح نفسى مرة أخرى. وقد بذلت جهدًا كبيرًا فى جمع الأموال لمشروعاتى الخيرية والمنظمات. وقمت بحملة من أجل قوانين الأحوال الشخصية. وكنت أخطط أيضًا لأهم حدث فى أسرتى وهو زواج ابنى جمال، إنه الزواج الذى سبب لى كثيرًا من النزاع.

كان ابنى جمال قد قابل دينا عرفان فى مدرسة الجزيرة الإعدادية عندما كان عمره ١٥ عامًا ووقع فى حبها منذ ذلك الوقت، لكننى كنت أعارض زواجهما. فى أول سنة له فى الجامعة كان جمال لا يزال صغيرًا على مجرد التفكير فى الزواج. وقد منعته من رؤيتها على أمل إضعاف حبهما المراهق. لكن مشاعر كل منهما نحو الآخر قويت أكثر. وحتى عندما بعثنا أنور أنا وجمال إلى لندن لقضاء إجازة الصيف لم يتغير شىء. وظل جمال يتوسل إلى قائلًا: «من فضلك يا مامى، أنا أحب دينا وأريد الزواج منها..»، لكننى رفضت الموافقة ورفضت حتى مقابلتها، لقد كانت أول فتاة فى حياته، وتمنيت من أجله أن يقابل بنات أخريات بدلًا من الندم المتأخر على التسرع. إنه كان لا يزال طالبًا صغيرًا جدًا على تحمل مسئولية زوجة وأطفال، لقد استغرق جمال خمس سنوات فى محاولته لتغيير رأيى.

وذات يوم بعد عودتى من اجتماع مع مجلس إدارة الوفاء والأمل راعنى أن أجد جمال فى مدخل مكتبى والدموع تنساب على خديه. وقال لى: «تقضين كل وقتك تستمعين إلى مشكلات الناس وتحلين مشكلات الناس، ولكنك لا تساعدين ابنك».

وأصبت بصدمة، فربما كان على حق. قال جمال: «أحب دينا.. وأحبك ولن أتزوج أبدًا ما لم توافقى.. من فضلك يا ماما، من فضلك». وشعرت بالانزعاج وقلت: «لماذا لا تنهى دراستك ثم ننظر فى الأمر؟» لكن أنور دخل وراء جمال إلى الحجرة، وقال: «جيهان، إن كلا منهما يحب الآخر حقيقة.. فلماذا لا نعطيهما الفرصة للارتباط رسميًا؟ ثم يكون بوسعهما أن يتزوجا فى سنة بعد تخرج جمال».

كنت ما زلت وقتها أعتقد أن جمال لا يزال صغيرًا جدًا لكننى شككت فى اعتراضاتى، وفوق ذلك كان هذا هو نفس المأزق الذى وجدت نفسى فيه عندما أحببت أنور. فهل أكرر فرض عناد أمى؟ وهل كان أنور متعاطفًا ومؤيدًا كما كان أبى؟ ونظرت إلى وجه جمال المهموم ورأيت وجهى قبل ٢٨ سنة.

وقلت لجمال: «اطلب دينا بالتليفون يا جمال.. أخبرها أننى أريد أن أتحدث معها»، امتقع وجهه من أثر المفاجأة وقال: «لا يا مامى، لا، لا.. لا أريد أن تجبرى بسرعة على تغيير رأيك».

قلت له بلطف، ليس بهذه السرعة يا جمال.. كنت أختبر حبك لدينا، ولكن بعد كل هذه السنوات دون أن يتغير رأيك، لا بد إذن أنك تحبها حقيقة اطلبها على التليفون».

وعندما تحدثت إلى دينا لم تنطق تقريبًا، فقلت لها: «دينا.. زوجى وأنا نود أن نحضر بعد ظهر اليوم لمقابلة والدك ووالدتك». قالت وهى تتلعثم أن أمها نيكول فى باريس لكن والدها وجدتها موجودان. قلت: «رائع.. إذن سيتناول زوجى وأنا كوبًا من القهوة معهما». وعلى الفور اتصلت دينا بوالدتها التى ذهبت مباشرة بعد سماعها هذه الأخبار غير المتوقعة إلى نوتردام الشهيرة لتشكر الرب. وقالت لى بعد ذلك: «انحنيت وقبلت أرض الكنيسة». وأضافت نيكول وهى مسيحية لبنانية أصبحت صديقتى العزيزة بعد ذلك، «أخيرًا ستكون ابنتى سعيدة» لم أر فى حياتى وجهًا سعيدًا مثل وجه جمال عندما توجهنا، والده وأنا، إلى منزل محبوبته، وأنا هناك كنت أختلس النظرات لدينا لأرى ما الذى جعلها فاتنة لولدى، وكذلك فعلت بناتى اللاتى حضرن معنا. وبدت دينا جميلة فاتنة فى فستان استعارته بسرعة من عمتها، لأنها بوضوح تشبه الصبى فى ارتدائها البنطلون الجينز والقميص الـ«تى شيرت» عادة حتى اجتماعنا، ولذلك اقترضت فستانًا من عمتها، وقد بدا والد دينا مرتبكًا عندما أبلغه أنور أنه حضر هو وزوجته وبناته ليسأل إذا كانت دينا ستتزوج جمال. كل ما استطاع أن يقوله هو: «إنه لشرف، سيدى الرئيس.. إنه شرف».

وكانت دينا وعمتها أيضًا من الإثارة لدرجة أنهما لم تتكلما، تاركتين جدتها وأنا فقط نتحدث.. وقلت لجدتها: «إن حفيدتك محظوظة جدًا لكونها ستتزوج ابنى»، فقالت بسرعة «نعم يا سيدتى.. وابنك محظوظ أيضًا» وأحببت روحها ووافقت على أنهما هما الاثنان محظوظان. وقد أحضرت معى ساعة لإهدائها إلى دينا كهدية خطوبة ووضعتها حول معصمها وقبلتها واتفقنا كلنا على أن يتم الزواج خلال عام، لم نكن نعلم ونحن جالسون معًا حينئذ المغزى الذى سيكون لهذا الزواج.

وفى يوم حار من أغسطس ١٩٧٨ خلال شهر رمضان فى الإسكندرية أبلغنى أنور: «أنه سيزور

أمريكا.. لقد أحضر لى سيروس فانس دعوة من الرئيس كارتر لحضور قمة أخرى هناك مع بيجين وقد قبلت».. ومن جديد زادت آمالى فى السلام. فقد مرت تسعة شهور تقريبًا على دعوة أنور للسلام فى القدس. وإذا كان بإمكان أى دولة أن تضغط على إسرائيل لتتصرف فى تعقل فهى أمريكا وأنور أيضًا أحب الرئيس جيمى كارتر جدًا لعلمه أنه رجل على خلق ومتدين أيضًا. وسألت أنور: «متى ستذهب؟» لأن زفاف جمال لم يتبق عليه سوى شهر فى ٢٤ سبتمبر. قال أنور: «فى أسرع وقت ممكن.. لكن لا تقلقى هل تظنين أننى سأتخلف عن زفاف ابنى؟» ذكرت أنور





السادات وجولدا مائير

بأننى سأكون فى باريس مع شريف فى أوائل سبتمبر.

فقد أصيب حفيدنا الصغير بمرض الربو وحجز طبيبنا له لدى إخصائى فى فرنسا قبل ذلك بشهور. قال أنور: «سوف أكون فى كامب ديفيد».

وفى ٥ سبتمبر ١٩٧٨ ومن باريس اتصلت بأنور تليفونيًا قائلة: «أنور كيف حالك؟ وكيف تسير المحادثات؟ هناك تعتيم إعلامى ولم أسمع شيئًا» وقال أنور: «بيجين صعب جدًا، ذلك الرجل معقد جدًا». وشجعته قائلة: «لكنك تفهمه يا أنور». قال: «إننى أحاول وأحاول وأحاول يا جيهان لكن الأمر غير مشجع».

قلت لزوجى: «سيتغير ذلك غدًا يا أنور، فقط انتظر وانظر. يجب أن نتحلى بالأمل..

ربنا معاك فى جهدك. أصلى من أجلك وأعلم أن الله سيساعدك»

وكنت أتصل بأنور كل ليلة من باريس، وكل ليلة كانت أخباره غير مشجعة. كان الرئيس كارتر يجتمع مع زوجى وبيجين كل على حدة محاولًا التوسط للتغلب على خلافاتهما الكبيرة، بينما وزراء خارجية الدول الثلاث سيروس فانس وموشى ديان ومحمد إبراهيم كامل يحاولون وضع التفاصيل. لكن التفاصيل كانت قليلة جدًا.

بعد يومين قلت لزوجى: «يبدو أنك مرهق جدًا» استطعت أن أسمع تنهيدته من هذا البعد عبر المحيط، رد قائلًا: «من المنهك أن تضطرى للكفاح الشاق من أجل السلام».

وكانت الأخبار من بقية دول العالم غير مشجعة كذلك. لقد اندلعت أحداث شغب فى طهران

وكل مساء يذيع التليفزيون فى باريس نشرات أخبار مصحوبة بأفلام للعنف. لقد كان من المرعب حقًا أن ترى العيون اللامعة للمتعصبين المتدينين مملوءة بالكراهية وأن تسمع الدهماء يرددون تهديدات الموت ضد الشاه.

واتصلت بفرح ديبا فى طهران أسألها: «فرح» هل أنت وزوجك بخير؟ إننى أشاهد المظاهرات على شاشة التليفزيون وأنا قلقة عليكم». وفى صوت اتسم بالهدوء المصطنع قالت فرح: «إننا نمر بشدة.. ونصلى لكى تمر سريعًا».

ليلة بعد ليلة. كانت الأخبار فى باريس تنقل أخبار الاضطرابات فى إيران: أفلام تبين النساء ينتحبن على قبور أقاربهن الذين اختفوا فى ظروف غامضة، ومقابلات مع إيرانيين فى فرنسا هربوا من تعسفات «السافاك» وهو البوليس السرى الإيرانى، وأخبار الفساد وسوء استخدام السلطة فى الجهاز الحكومى. وقد صدمت لأن الموقف المعقد فى إيران كان يبدو بسيطًا للفرنسيين. وكنت أشعر أنه أخطر وأشد ضراوة.

اتصلت بأنور تليفونيًا وقلت له «لقد تحدثت إلى فرح فى طهران». قال «كيف حالهم؟». قلت «فرح قالت إنهم طيبون، ولكن الوقت بالطبع صعب جدًا بالنسبة لهم».

قال أنور «أنا قلق جدًا» وأضاف أنور الذى كان يتابع الاضطرابات فى إيران من كامب ديفيد «لقد اتصلت بالشاه بنفسى وأبلغته أننى أصلى من أجله».

قلت لزوجى: «وأنا أصلى أيضًا من أجلك ولأجل السلام».

فى باريس كنت أقضى الصباح مع ابنتى نهى وشريف فى المستشفى، حيث كان تحت العلاج، ومعظم الوقت المتبقى فى متابعة الأخبار حول إيران فى التليفون، ولم تكن لدىّ رغبة للخروج لزيارة أصدقائى أو لتناول الطعام فى المطاعم، لأن الأخبار كانت تنذر بالسوء أكثر فأكثر. وقد صرفت نفسى عنها بعمل الترتيبات الأخيرة لزفاف جمال ودينا.

لقد دعونا عددًا كبيرًا من أصدقائنا من بينهم كل السيدات فى جمعية تلا والسيدات

الأعضاء فى البرلمان والسيدات العاملات معى فى نشاطاتى الاجتماعية.

وطلب مطربون كثيرون الغناء فى حفل الزفاف، لكننا لم نستطع سوى الموافقة على أربعة أو نحو ذلك، وإلا كان الفرح سيستمر أسبوعًا وقد اهتززت طربًا لأن صباح المطربة اللبنانية الجميلة وواحدة من أكثر المطربات شعبية فى الشرق الأوسط سوف تحضر للغناء لضيوفنا.

كان جمال آخر ابن لنا يتزوج ولذلك أردت أن يكون الزفاف مثاليًا، وحرصت على الاطمئنان على كل ترتيبات الاحتفال بما فيها كعكة الزفاف ذات السبعة طوابق التى سيقوم جمال ودينا بقطعها.

فى ليلة ١٥ سبتمبر بعد وصول أنور إلى كامب ديفيد بعشرة أيام أجريت مكالمتى المعتادة مع زوجى قلت له وأنا أعلم بمجرد أن سمعت صوته أن هناك شيئًا «ما هو يا أنور» قال «سأغادر كامب ديفيد».

قلت «تغادر كامب ديفيد؟ لا تقل ذلك لى يا أنور ماذا حدث؟»

قال: «بيجين غير معقول تمامًا. إنه يرفض إعادة الضفة إلى الحكم العربى وموشيه ديان أبلغنى الليلة الماضية أن الإسرائيليين لا ينوون التوقيع على أى اتفاق الآن.

ليس هناك هدف من الاستمرار، كل ما عملنا من أجله انتهى».

قلت «من فضلك يا أنور.. كنت رجلًا صبورًا لوقت طويل حاول لعدة أيام قليلة أخرى فقط».

قال «لقد حزمت حقائبى وطلبنا هليكوبتر لنقلنا إلى المطار فى واشنطن».

قلت: «هل الرئيس كارتر يعلم بذلك؟»

قلت: «نعم، وقد طلب الاجتماع معى سرًا، ولكنى لا أرى داعيًا لذلك».

قلت «يا أنور، لقد أعطيت الرئيس كارتر كلمة بأنك ستفعل ما بوسعك لتحقيق السلام والآن أنت تنسحب، إنه رجل أخلاق ومبادئ. وكذلك أنت. لا يمكن أن تفعل ذلك معه».

قال: «إنى أفكر فى ذلك يا جيهان» قالها وصوته متوتر، فى تلك اللحظة شعرت بالندم لعدم وجودى إلى جانب زوجى فى كامب ديفيد. لو أننى كنت هناك لكنت قد هدأته وشجعته. واكتشفت بعد ذلك أن روزالين والرئيس كارتر طلبا أن تحضر زوجتا الزعيمين معهما إلى كامب ديفيد لتخفيف التوتر وجعلهما أكثر تعقلًا. كانت إليزا بيجين هناك فى كامب ديفيد. واضطررت أن أتم اتصالاتى بالتليفون. وبعد ذلك بساعتين اتصل بى أنور قائلًا: «سأبقى يا جيهان.. لكنى لا أستطيع أن أعد بشىء».

قلت «بارك الله فيك، بارك الله فيك».

وكنت فى حجرتى عندما دق جرس التليفون بعد ذلك بيومين، وكان صوت أنور هذه المرة متهللًا.

قال «توصلنا إلى حل» أخيرًا وبعد صعوبات لا حصر لها.

صحت قائلة فى التليفون «لا يمكن أن أصدق ذلك.. قلها مرة ثانية يا أنور لعلى أستطيع تصديقك».

قال «أوه، جيهان، قلتها مرة وأنا أعنيها.. لقد وعدت إسرائيل بإيقاف بناء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية وتم وضع جدول زمنى للتفاوض حول الحكم الذاتى الفلسطينى، ونحن سنتوجه الآن إلى واشنطن حيث يتم إعلانه».

قلت «لقد أجبت دعواتى».

قال أنور بسرعة «سأطير الليلة إلى المغرب، احضرى وقابلينى هناك».. قلت «سأكون هناك بالتأكيد.. مع هذه الأخبار من الممكن أن أطير حتى بدون طائرة».

واحتضنت ابنتى وصديقة كانت معنا قائلة:

«السلام، السلام أخيرًا.. اليوم سنخرج للاحتفال فى أى مطعم فى باريس..

اختاروا أين تريدون أن تذهبوا، إنها مهمتى».

وفى الشارع تقابلنا مصادفة مع أصدقاء أعزاء من القاهرة، أمين وقرينته زينة

وابنتهما منى.

وسألتهم «هل سمعتم الأخبار الطيبة؟

وصعق أمين وزوجته عندما أخبرتهما، وقلت «تعالوا، انضموا إلينا للاحتفال، إننى أدعوكم».

وأصر أمين قائلًا «لا بد أن تكونى ضيفتى أنا الرجل». واحتفلنا معًا بشجاعة زوجى وصبره فى المفاوضات حتى نجحت مساعيه.

وعندما التقيت أنور فى المغرب حذرنى من أن الاتفاق تم توقيعه بالأحرف الأولى فقط وأنه لا تزال هناك تفاصيل مطلوب تسويتها وسألته «كم من الزمن سيستغرق ذلك؟».

قال «ربما ثلاثة أشهر» وطرنا عائدين إلى مصر معًا لحفل زواج ابننا..

وكان الضيوف واحدًا بعد الآخر يقولون لأنور «مبروك» وفى الشوارع احتشدت الجماهير للتعبير عن رضاهم عن جمال وأنور معًا لجلبهما السلام إلى بلادنا، ولم تكن الحديقة قط أجمل مما كانت عليه ذلك اليوم، فاللونان الأخضر والأبيض أصبحا أيضًا لونى السلام وانهمرت الدموع على خدود الكثيرين من ضيوفنا، السلام والآن زواج ابننا، وقال أنور صباح ذلك اليوم ونحن جالسون فى شرفتنا نشاهد الناس يرقصون فى الشارع أسفل البيت «تعال يا جمال وتعالى يا دينا» ومد يديه إلينا وكونا كلنا دائرة وبعد ذلك وفى تطور لا يمكن تصديقه بدأ يرقص ويتقدمنا فى خطوات الدبكة، وقد رقصت وضحكت حتى أوجعتنى أجنابى والدهشة تتملكنى للسعادة التى على وجه أنور فقد كانت المرة الأولى والوحيدة التى رأيته فيها يرقص.

فى ٢٧ أكتوبر ١٩٧٨ منحت جائزة نوبل للسلام مناصفة لزوجى ومناحم بيجين. وكان الناس فى أوروبا ومصر ينظرون إلى زوجى على أنه ملاك أو قديس وشهيد كان مستعدًا للتضحية لإنهاء سنوات الصراع بين اليهود والمسلمين فى الشرق الأوسط. كان كثير من العرب يصفون أنور بأنه شيطان ويصفون مثل هذا السلام مع إسرائيل بأنه هرطقة، وبعد ستة شهور من عودة زوجى من كامب ديفيد كانت الدول العربية قد عرضت عليه ٥ مليارات دولار سنويًا لمدة عشر سنوات لإيقاف التفاوض مع إسرائيل، ورفض العرض تمامًا، وقال فى خطاب أثار الأشجان أمام مجلس الشعب إن المصريين أصحاب قيم وأخلاقيات جميعًا فمصر ليست «كدولة أخرى تجعلها مائة مليون دولار تتخذ قرارًا فى اتجاه ما ومائة مليون أخرى تتخذ قرارًا آخر.. إن كل مليارات هذا العالم لا تستطيع شراء إرادة مصر. وقد كنت مندهشة إزاء أصدقائنا السابقين فى الدول العربية الذين اقتسمنا معهم الكثير جدًا وأعلم أيضًا أن غالبية القادة العرب موافقون سرًا على مبادرة أنور السلمية ولكن لا يجهرون بإعلانها، وعندما عاد دبلوماسى أجنبى من اجتماع فى دول الخليج قال لى إن مسئولًا حكوميًا هناك امتدح أنور لانتهاجه السبيل الوحيد الممكن لتحرير أرضنا، وفى اليوم التالى مباشرة أبلغ هذا المسئول الحكومى صحفيًا أمام هذا الدبلوماسى أن السادات لم يكن مصيبًا وأن كل العرب ضد أى نوع من الحلول مع إسرائيل لأن الإسرائيليين يحتلون أرض فلسطين، ولم تكن الصحافة السورية أيضًا رحيمة بالرغم من أن صداقتنا مع حافظ الأسد وقرينته تعود فى قدمها إلى ما قبل توليه رئاسة سوريا.

لقد أصبت باكتئاب بسبب هذه الهجمات وحزنت أيضًا للانتقادات التى وجهتها زوجات الزعماء العرب لرؤية أنور السلمية. فمدام وسيلة قرينة الرئيس بورقيبة رئيس تونس أقامت لى احتفالًا رائعًا عندما زرنا أنور وأنا أسرة بورقيبة فى قصرهم الجميل على البحر فى تونس العاصمة، وكانت ضيفة رسمية علىّ فى القاهرة خلال رحلة أنور إلى القدس. فى ذلك الوقت، كانت مؤيدة جدًا لسعى أنور من أجل السلام، لكنها الآن بعثت إلىّ برسالة شخصية تحتج فيها على اتفاق كامب ديفيد. وقد بعثت لها برد مناسب ولحسن الحظ لم تنقطع صداقتى معها، لكن معظم زوجات القادة العرب الآخرين قطعن كل الاتصالات معى، وغضبت جدًا فى الحقيقة لأن علاقاتنا الشخصية كانت تعتمد على السياسة، يا لها من خسائر لم تكن لها ضرورة، وتذكرت جيدًا عدم ارتياح زوجة أحمد الخطيب التى حدث أن وجدت نفسها فى القاهرة فى اليوم الذى هاجم فيه زوجها وكان رئيسًا لوزراء الجمهورية العربية المتحدة التى لم تبق طويلًا مصر فى الصحف، لم توافق أى من السيدات المصريات اللائى كن يحضرن حفل غداء على انتقاد زوجها بمن فيهن أنا، لكنه كان زوجها هو الذى أغضبنا وليست هى، وعندما نويت الذهاب للجلوس إلى جانب قرينة الخطيب انفجرت باكية وقالت وهى تبكى «عزيزتى جيهان.. أختى من فضلك هذه بيانات سياسية فقط؟»

وهدأت من روعها قائلة: «طبعًا.. إننا جميعًا نعرف أن السياسة مصنوعة من الخناقات التى فى النهاية تتم تسويتها، ليس هذا هو اهتمامنا، دعينا نطرح عمل السياسيين ونستمتع بدلًا من ذلك بسعادتنا وروابطنا الشخصية كسيدات وصديقات» كنت دائمًا أشعر بذلك لكن لم يتفق معى كثيرون.

وفى صيف ١٩٧٨ اتصلت إحدى كريمات الرئيس جمال عبدالناصر بى تليفونيًا قائلة: «تانت جيهان لا بد أن أتحدث معك على انفراد.. لقد عدت من ليبيا لتوى برسالة لك من القذافى» قلت لها لا أستطيع مقابلتك الآن يا منى فأنور على وشك التوجه إلى السودان، ولا بد أن أكون فى وداعه.. وسوف أتصل بك بعد ذلك» وشعرت بانقباض وأنا أضع سماعة التليفون قائلة رسالة من القذافى؟ فالقذافى كان يهدد حياة أنور منذ عدة شهور حتى الآن فهل يقتل أنور فى السودان؟ وأسرعت إلى الدور الأرضى لإبلاغ أنور أننى غيرت رأيى وأريد الذهاب معه فى رحلته، لم أقل له شيئًا عن المكالمة وبقيت ملاصقة له خلال زيارته للسودان على مدى يومين.

وبمجرد أن عدنا دعوت منى للحضور لمقابلتى وقد أكدت توقعاتى إذ عرفتنى أننى إذا رفضت أن أستخدم مكانتى عنده لجعله يتخلى عن اتفاق كامب ديفيد فسوف يكون القذافى مضطرًا لقتله، لقد أبلغها القذافى بذلك.

وانتابنى غضب شديد وطلبت من منى التى بدا عليها القلق من فضلك خذى رسالة منى ووصليها للقذافى قولى له إنه يعرف تمامًا أننى كزوجة لا أتدخل فى أى قرار سياسى أو رسمى للرئيس.. أما بالنسبة لتهديده بقتل السادات عرفيه أن الله وحده هو الذى يتحكم فى حياة الإنسان، ولم أتلق ردًا. وبدلًا من ذلك كثفت الصحافة الليبية هجماتها وأعلنت «جيهان السادات تريد أن تحكم مصر وزوجها يفعل أى شىء تقوله مطيعًا لها...».

والإسرائيليون أيضًا استمروا فى أفعالهم بشكل مثير. فبعد ثلاثة شهور فقط من التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاق السلام فى كامب ديفيد بدأ الإسرائيليون يتراجعون عن كلمتهم، فبدلًا من فك المستوطنات فى الضفة الغربية استمروا فى توسيعها وأعلنوا خططًا لبناء مستوطنات جديدة.

واغتاظ أنور من هذه الأفعال المخالفة لروح اتفاقات السلام لدرجة أنه رفض التوجه إلى أوسلو مع مناحم بيجين لتسلم جائزة نوبل للسلام فى ديسمبر، وذهب بدلًا منه المهندس سيد مرعى حما ابنتى، وتبرع أنور بالنقود المخصصة له من الجائزة وأمر بأن تمنح لقريته ميت أبوالكوم لإقامة منازل حديثة بدلًا من المنازل المبنية بالطين. وفى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٨ قضى أنور عيد ميلاده فى ميت أبوالكوم مكتئبًا ومغرقًا فى التفكير، بينما أحاول أنا وأبنائى الترويح عنه.

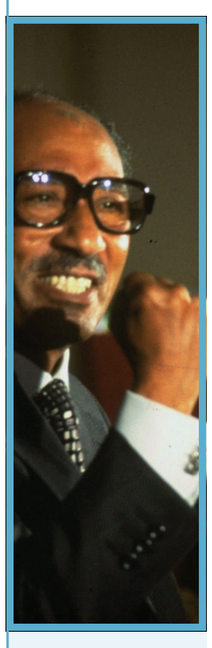
وقد أصبت أنا بإحباط شديد بسبب انتهاكات الإسرائيليين، فمنذ زيارة أنور للقدس وملايين المصريين يعتقدون فى إمكانية السلام مع إسرائيل. إمكانية تحويل الأعداء إلى أصدقاء، وعندما حضرت أول مجموعة من الصحفيين الإسرائيليين الآخرين إلى مصر بعد زيارة أنور للقدس كان المصريون ينادون عليهم قائلين: «شالوم» أى السلام «عارضين عليهم الهدايا والمشروبات والمأكولات المنعشة، حتى أنا وافقت بشىء من العصبية على إجراء حديث مع صحفى إسرائيلى، فقد بلغنى أن يورى افنيرى متعاطف مع القضية الفلسطينية وكان متحدثا باسم حزب السلام فى إسرائيل حتى طردته جولدا مائير من الكنيست.

وسألته «ما الذى حدث لبلدكم».. لقد عشتم تطلبون السلام وتريدون اعترافنا بكم.. وقد جعل زوجى أحلامكم المستحيلة تصبح حقيقة والآن كل ما تفعلونه هو وضع العقبات فى الطريق للسلام لماذا؟ لم يستطع يورى الاختلاف معى.. وأوضح قائلًا إن شعبى مصاب بالعقد. إن تاريخ اضطهاد اليهود فى أوروبا علمنا أن ننظر إلى كل شىء بارتياب بالغ .. سيتحقق السلام لكن ذلك سوف يأخذ وقتا..

وقلت له ساخرة: «إنكم فى الواقع لا تحتاجون إلى قائد شجاع لإحلال السلام.. ما تحتاجونه هو مجموعة من علماء النفس لتخليصكم من عقدكم.

واضطر يورى للموافقة قائلًا: «إنه كذلك». كم من الإحباط شعرنا به عندما أوشك عام ١٩٧٨ على الانتهاء فبعد أكثر من سنة على زيارة أنور للقدس وثلاثة أشهر على اتفاق كامب ديفيد لم يتحقق السلام مع إسرائيل والأخبار من إيران تزداد سوءًا، الطلبة يتظاهرون ضد الشاه والنساء تتظاهر ضده والأطفال كان يجرى تنظيمهم للتظاهر ضده..

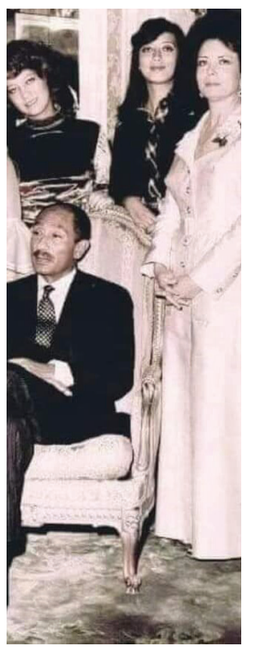
وفى جنازات المشاغبين الذين قتلوا على أيدى البوليس اندس المعارضون يحرضون على مظاهرات جديدة أنهم سوف يلهبون العنف أكثر فى اليوم الأربعين للجنازات، عندما يلقى مزيد من الناس



حزنت أيضًا للانتقادات التى وجهتها زوجات الزعماء العرب لرؤية أنور السلمية



القذافى بعث لى رسالة تقول: إذا لم تقنعى أنور السادات بالتراجع سأضطر إلى قتله!







السادات وجيهان مع كارتر وزوجته فى الأهرامات

مصرعهم، تلك الحلقات المعدة جيدًا للعنف تقترب أكثر فأكثر من الإطاحة بالشاه.

واتصلت بالشهبانو فى طهران بعد رأس العام الجديد فى ١٩٧٩ مباشرة وقلت لها «فرح، قرأنا فى الجرائد هنا أنكم تنوون القيام بإجازة لماذا لا تأتين أنت وزوجك لزيارتنا فى مصر؟».

وردت فرح قائلة: «شكرًا، يا جيهان.. لا ننوى القيام بإجازة حاليًا» وأصابتنى الحيرة وأنا أضع سماعة التليفون لقد علمت عندما قرأت عن إجازتهم المعتزمة للراحة والنقاهة أنهم على وشك أن يجبروا على الإقامة فى المنفى، فحياتهم فى خطر بالغ فى إيران، ألم تفهم فرح ذلك؟ ولماذا ترفض دعوتنا؟ بالتأكيد لا بد أنها والشاه يعلمان أن أنور يعتبرهم أصدقاء أعزاء بغض النظر عن السياسة الخاصة والوضع الحالى.

وسألت زوجى «أنور» هل ستتصل بالشاه تليفونيًا وترى إذا كان يستطيع تغيير موقفه بشأن الحضور إلى مصر؟.. إنهم لسبب ما رفضوا دعوتنا.

وقال وكان قد اتصل بهم أيضًا أن السفير الأمريكى فى طهران يحث الشاه منذ فترة على مغادرة البلاد لبعض الوقت عسى أن تستطيع حكومة جديدة إعادة الاستقرار للبلاد، لكن الشاه لا يريد أن يرحل ويشك أن الولايات المتحدة اتفقت معى لإخراجه من إيران.

وعندما أكدت له أننا نقدم دعوة شخصية وليست دعوة سياسية غير رأيه» وسوف يصل هو وفرح الأسبوع المقبل..

قلت هذه أخبار مدهشة.. كلاهما عانى كثيرًا.. وقال أنور سوف نفعل ما بوسعنا لاستقبالهما بأعظم ترحيب ممكن.. لن أنسى أبدًا كم ساعدنا خلال حرب أكتوبر وأيد مبادرتى السلمية مع إسرائيل. وهذا دورنا الآن للوقوف إلى جانبه».

وفى ١٧ يناير ١٩٧٩ وقفت بجانب أنور فى المطار فى أسوان، بينما الشاه يقود طائرته الفالكون «ذات اللونين الفضى والأزرق إلى أن يقف بها. وأمر أنور باستقبال عسكرى كامل بالرغم من أن حكومة مؤقتة تم تشكيلها فى إيران، إلا أن الشاه كان لا يزال رئيس الدولة الرسمى. وتجمع كل وزرائنا فى المطار لاستقباله وكذلك السفير الايرانى فى القاهرة عباس نيرى. لقد علم السفير نيرى مثلنا أن الشاه لن يعود إلى إيران أبدًا وأنه هو نفسه سوف ينتقد بشدة من جانب نظام الحكم الجديد بسبب استقباله. لكنه مثل زوجى كان رجل مبادئ وكان الشاه لا يزال إمبراطور إيران.

كم كان وجه الشاه متغيرًا وهو يهبط على السجادة الحمراء ويقف انتباهًا، بينما كان حرس الشرف المصرى يطلق ٢١ طلقة تحية له وكانت الفرقة العسكرية تعزف النشيدين القوميين للبلدين. لم أدرك وقتها ولا أنور أن الشاه كان مريضًا بالسرطان المميت، لقد عزوت تغيره للتوتر المرعب الذى كان يعيشه، وقد انفطر قلبى له. قّل أنور الشاه بحرارة على وجنتيه، بالرغم من أن مساعديه نصحوه بألا يستقبله بمثل هذا الترحيب الحماسى لعلمهم أن الصورة سوف تنشر فى الصفحات الأولى للصحف فى كل أنحاء العالم.

لكن زوجى لم يكن ذلك الذى يتخلى عن صديق لمجرد أن المد السياسى كان يسير ضده وقال زوجى للشاه الذى كانت عيناه مغرورقتين بالدموع: استريح يا محمد أنت فى بلدك ومع شعبك وأخوتك..

ومشيت مع فرح خلف أنور والشاه، بينما كانا يستعرضان حرس الشرف. كم كانت فرح سيدة جميلة ولا تزال، وكم حاولت أن تعمل من أجل بلدها. ولو كان لديها مزيد من الوقت لأتمت الكثير، ذلك أنها لم تستطع أن تنخرط انخراطًا تامًا فى النشاطات الاجتماعية، لأن لديها أربعة أطفال صغار. لكنها بعد ذلك أصبحت حلقة وصل أساسية بين زوجها والشعب تستمع إلى مشكلاتهم. أحطتها بذراعى ولاطفتها أثناء توجهنا معًا إلى فندق ابروى. على طول الطريق كانت صور الشاه التى أمر أنور بتعليقها على وجه السرعة، والتى كانت قد تخلفت عن زيارة رسمية سابقة، لكنى أشك أن يكون الشاه قد لاحظ شيئًا، لقد كان فى حالة ذهول شديد..

انسابت الدموع على خديه فى السيارة، بينما هو يحكى لزوجى الوداع المؤثر الذى تلقاه من العسكريين الإيرانيين فى المطار فى طهران. وقال الشاه «شد حارسى الشخصى على يدىّ وتوسل إلى أن أبقى» وقال لى راجيًا لا تتركنا ستخسر إيران بدونك والمستقبل مظلم. وقد شعرت كأننى قائد ترك لتوه ساحة القتال..

وعلى الفور عرض زوجى اللجوء للقوات المسلحة الإيرانية التى ظلت موالية للشاه خلال كل الاضطرابات. واقترح أنور قائلًا لماذا لا تسحب طائرات سلاحك الجوى ووحدات بحريتك؟.. سوف تستضيفهم مصر حتى تستقر الأحوال فى إيران».

لكن رد الشاه كشف عن يأسه. وقال فى حزن «الأمريكيون لن يسمحوا بذلك لقد أجبرونى على ترك البلاد.. وكان السفير يردد النظر فى ساعته باستمرار فى المطار قائلًا إن كل دقيقة أتأخرها ليست فى صالحى ولا فى صالح إيران. ورأيت أثر الصدمة على أنور.

وأبلغنى بعد ذلك أنه لم يستطع أن يصدق بأن تتحكم حكومة أجنبية فى شئون البلاد، فى تلك اللحظة أدرك أن الشاه ضاع.

وظلت الصحف فى مصر وفى إيران تصف إقامة الشاه معنا «إجازة» وكذلك كانت فرح التى أحضرت معها ملابس قليلة، وخلال الأيام الخمسة التالية التى قضيناها معًا فى فندق أوبروى فى أسوان قالت لى مرارًا «سوف نعود قريبًا إلى طهران».

ومع أن الشاه كان أكثر واقعية، إلا أنه ظل يتحدث بشوق شديد عن العودة إلى بلده الذى قال إن مستشاريه بالإضافة إلى الأمريكيين حثوه على الرحيل مؤقتًا عنها، معتقدين أن ذلك سيهدئ الشعب. وظل الاثنان يقولان لنا أإنهما ينتظران الوقت المناسب للعودة إلى بلادهما، ولكن كل يوم كانت الأخبار الواردة من إيران تزداد سوءًا.

ولم نتحدث عن شىء آخر. لم يستطع الشاه احتواء كربه بسبب الأخطاء التى وقعت والتى ليست كلها بالضرورة أخطاءه. لقد كان أفراد من عائلته والحكومة فاسدين. وكان البوليس السرى «السافاك» وحشيًا مع الناس.

معلومات كثيرة لم تصل إلى الشاه أبدًا تاركة إياه غير عالم وغير قادر على التصرف، وأبقاه مستشاروه معزولًا. وقلنا له محاولين تهدئته: «الحمد لله أنكم هنا معنا فى أمان». لقد خرج الشاه من كابوس، ويمكن بسهولة أن يتعرض للاغتيال فى أى وقت.

كان الشاه يتمشى كل صباح لمدة ساعة حول المساحة الجميلة المحيطة بأبروى الذى اخترناه لأنه منعزل على جزيرة من صنع البشر فى وسط النيل، ويمكنك أن ترى أضواء أسوان من أحد جوانب الفندق وقبر أغا خان إمام الطائفة الاسماعيلية من الجانب الآخر. وبالرغم من أن أغا خان جد أغا خان الحالى لم يكن مصريًا، إلا أنه طلب أن يدفن فى أسوان.

وفى واحدة من الألغاز التى لا يمكن تفسيرها شفاء أغا خان الذى كان مقعدًا ويسير على كرسى متحرك فى أسوان. ربما كان شفاؤه يرجع إلى الطقس الجاف لدرجة أنه قبل بناء السد العالى لم ير أحد فى أسوان سحابة واحدة فى السماء. لكن أغا خان كان يحضر كل شتاء إلى أسوان للراحة والمشى قبل أن يضطر إلى قضاء بقية عمره على كرسى متحرك.

وكنت أتمنى أن يزيل سحر أسوان الشحوب التى كانت تعتلى وجه الشاه أيضًا.

وفى اليوم الرابع من زيارتهم، وعندما اضطر أنور للانصراف لحضور اجتماع مهم فى السودان مع الرئيس نميرى، رتبت لاصطحاب الشاه وفرح فى نزهة نيلية.

وقد بدت عليهما الراحة الآن وأصبحا مستعدين للنسيان.. وجهزنا سندوتشات ومشروبات خفيفة وحلويات. ولمدة ثلاث ساعات أو نحو ذلك أبحرنا فوق مياه النيل الهادئة إلى أطلال معبد فيلة الرومانى.. وبينما قاربنا يمر بالقرب من الشاطئ أخذ الناس يقولون بأعلى صوتهم للشاه والإمبراطورة، مرحبًا مرحبًا بكما فى مصر، ورد الشاه وفرح التحية ملوحين للجماهير متأثرين جدًا بشعورهم الودى، لكنى رأيت فى عينى الشاه أن حماستهم آذته لأنها ذكرته بمشاعر السخط التى أبداها شعبه فى إيران علنًا.

وفى ٢١ يناير استعد الشاه وفرح بعد أن بدت عليهما الراحة والاسترخاء للرحيل من مصر إلى المغرب.. وقلت لفرح عندما قبلتها مودعة «لا بد أن تعودا إلى مصر حينما ترغبان.. اتصلا بنا فى أى وقت ومن أى مكان ستجدان دائمًا الترحيب». وفى أول فبراير عاد آية الله الخمينى إلى إيران.

وعندما عدت إلى القاهرة وجدت أن حرائق المتطرفين التى اجتاحت إيران تشتعل الآن فى الجامعة.. وبينما كنت أسرع لمحاضرة انتابنى الفزع عندما وجدت الجماعات الإسلامية قد غطت الحوائط بالملصقات التى تثنى على الثورة الإيرانية، ورأيت شبانًا ملتحين وشابات محجبات يوزعون منشورات تحذر من أن الحكومات التى لا تطبق الشريعة الإسلامية عليها أن تتوقع نفس النوع من الثورة الشعبية.

وبالرغم من أن شعورى لم يصل إلى حد القلق إلا أننى انزعجت. فقد أدركت أن ما حدث فى إيران لا يمكن أن يحدث فى مصر، فليس هناك تشابه على الإطلاق بين الظروف فى عقائدنا.

إن الشيعة فى إيران ينزعون للعنف، ذلك أنه منذ القرن السابع بعد مقتل إمامهم الحسين فى العراق بأيدى قوات أموية ورث الشيعة نزعة التمرد والثورة على السلطة.. إنهم يفتخرون أيضًا بأولئك الذين سعوا إلى الشهادة، وهو اتجاه مستمر حتى يومنا كما نرى فى مجزرة الحرب العراقية الإيرانية ويدفن الذين يسقطون فى القتال ضد العراق فى مقبرة خاصة بالشهداء وتمنح أسرهم امتيازات خاصة.

والشيعة فى إيران يتصورون آية الله الخمينى وزعماء إيران الدينيين الآخرين بشكل يختلف كثيرًا عما نرى نحن أهل السنة فى مصر.. علماء الدين من أهل السنة يؤمنون أن كل البشر متساوون عند الله، الإمام الكبير ليس أقرب له من أفقر رجل إلا بمقدار طاعته لله. لكن فى إيران يرفعون من قدر علمائهم الدينيين إلى أرفع المناصب الروحية والسياسية متقبلين كلام آيات الله على أنها قانون، هذا الاعتقاد فى التسلسل الهرمى أتاح للخمينى الذى كانت كلمته غير قابلة للمناقشة أن يصل إلى رئاسة الحكومة الجديدة فى إيران.. أما فى مصر فإن أكثر السنيين تعصبًا لن يعتقد أبدًا أن إنسانًا يمكن أن يتحدث باسم الله أى نيابة عنه.

حتى الآن لا يزال المتطرفون الدينيون فى جامعة القاهرة وكل أنحاء مصر معتدلين، وبالرغم من أنهم يمثلون أصغر شريحة من سكان مصر فإن المتعصبين منظمون جيدًا ولا يمكن تجاهلهم. وقلت لأنور «إن النشء ينساقون ليقعوا فى أيدى المتطرفين»، وقلت وأنا أحكى له ما رأيته فى الجامعة: «لقد خطت مصر خطوات كثيرة إلى الأمام لكن هناك أولئك الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى الوراء»، ووافقنى أنور بالرغم من أنه اعتقد أننى ربما كنت أبالغ فى تقدير نفوذ المتشددين فى الجامعة.

وأصررت قائلة: «أنور.. أستطيع فقط أن أبلغك بما أراه بعينى». وبعد ذلك ذهب إلى أسيوط فى فبراير ليخطب فى الطلبة.. وأعلن «لن نسمح بإدخال الدين فى السياسة ولا السياسة فى الدين.. وأعتقد أنه لا بد أن نعود إلى الدين كثقافة وليس على الإطلاق بالطريقة التى يحث البعض عليها الآن لا بد أن نتعامل معه كثقافة تعيد للعالم السلام الروحى والسلام الاجتماعى داخل وطن واحد».. وبعد خطاب زوجى خمدت المظاهرات. استمر السلام مع إسرائيل بعيدًا رغم ذلك، فبعد ستة شهور من عودة أنور من كامب ديفيد لا تزال المفاوضات بينه وبين بيجين حول مصير القدس الشرقية التى تحتلها إسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ وحول ملكية البترول فى سيناء وأيضًا حول مشكلة تقرير المصير للفلسطينيين تسير فى طريق مسدود. فإسرائيل تواصل توسيع مستوطناتها فى الضفة الغربية منتهكة بذلك اتفاق كامب ديفيد، وكانت عملية السلام على شفا الانهيار.

وفى أوائل مارس قال لى أنور: «جيهان، لقد قرر الرئيس كارتر الحضور إلى هنا للتحدث معى، ثم إلى إسرائيل للتحدث إلى بيجين»... وقلت فى حذر: «هذه أخبار طيبة يا أنور».

وواصل أنور حديثه قائلًا «ومسز كارتر سوف تحضر معه أيضًا». كانت تلك أنباء طيبة.

فقد أعجبت جدا بروزالين.. وعندما قابلتها لأول مرة فى واشنطن بعد قليل من انتخاب زوجها رئيسًا للولايات المتحدة عام ١٩٧٦ وجدنا أننا نشترك فى أشياء كثيرة، عملنا مع المتخلفين عقليًا والمسنين والمعوقين. وقد أجرت استقبالًا لى فى البيت الأبيض داعية رئيسات عدة منظمات لهن نفس اهتمامنا: المعوقون ومحو الأمية لدى الآخرين. ومن الناحية الشخصية كانت روزالين دافئة وحساسة جدًا. خلال مفاوضات كامب ديفيد رتبت للوفد الأمريكى طعامًا أمريكيًا والوفد الإسرائيلى طعامًا وفقًا لما تقرره الشريعة اليهودية ولأنور وجبته البسيطة المكونة من الفراخ وخضروات مسلوقة وشاى مع أوراق نعناع مغلية. وقال أنور إنه تم تخصيص مبنى فى كامب ديفيد كمسجد للصلاة.

وصلت أسرة كارتر إلى القاهرة يوم ٨ مارس ١٩٧٩ لتلقى استقبالًا رائعًا، فقد كان الرئيس كارتر ثانى رئيس أمريكى يزور مصر وسيكون أول رئيس يخطب فى البرلمان. وكان الأهم بالنسبة للشعب المصرى هو دأبه الشخصى بحثًا عن السلام. وبينما نحن قادمون من المطار إلى قصر القبة حيث كان سيقيم كارتر وأسرته كان ملايين المصريين يصطفون على جانبى الشارع يهتفون «مرحبا يا كارتر.. نحن نحب الرئيس كارتر.. بارك الله فيك يا كارتر..» وكانت هذه بعض الكلمات المكتوبة بخط اليد على طول الطريق.

وقد قالت روزالين مازحة ونحن فى السيارة معلقة على الزحام: متى نصل إلى القاهرة.

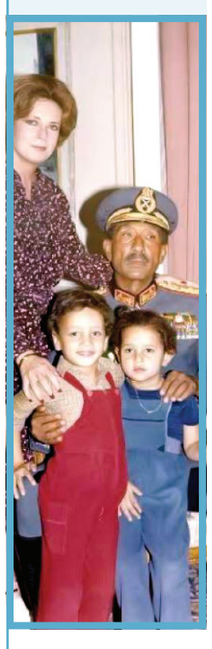
وكان لدى أنور والرئيس كارتر الكثير للحديث بشأنه، لكننا كنا نتطلع لأن نطلع أصدقاءنا الأمريكيين على أكبر قدر ممكن من مصر فى يومين، وفى صباح اليوم التالى ركبنا معًا فى القطار من القاهرة إلى الاسكندرية، وأخذت روزالين تطل على الأرض الزراعية فى دلتا النيل وأعربت عن حسدها لنا على أرضنا الخصبة السوداء التى تختلف كثيرًا عن التربة الحمراء التى يزرعها زوجها فى جورجيا. وعندما عدنا ذهبت معها إلى مجلس الشعب للاستماع إلى خطاب زوجها البليغ عن الرغبة فى السلام وهو يقتبس من القرآن الكريم والعهد القديم «التوراة» وموعظة الجبل من العهد الجديد «الإنجيل».

وقد قاطع أعضاء «المجلس» الرئيس كارتر مرارًا بالتصفيق. فقد أراد السلام مثلنا وهو متدين مثلنا.

وفى اليوم التالى وقبل خمسين دقيقة فقط من سفر كارتر إلى إسرائيل، سارعنا لنريهم الأهرام.



السادات عن الشاه: لن أنسى أبدًا كم ساعدنا خلال حرب أكتوبر وأيد مبادرتى السلمية مع إسرائيل

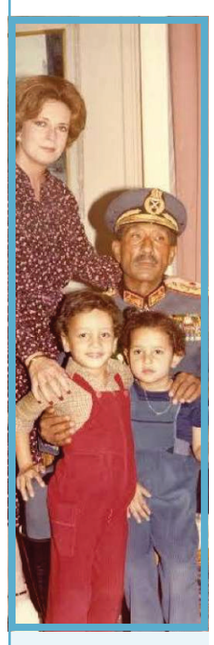


زوجى لم يكن ذلك الذى يتخلى عن صديق لمجرد أن المد السياسى كان يسير ضده

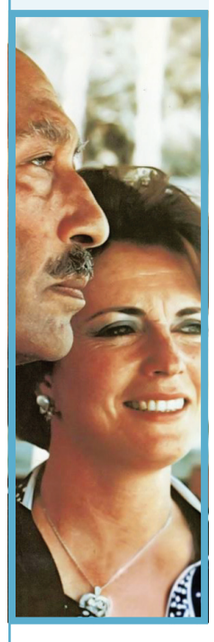




صداقة قوية بين أسرتى السادات وكارتر



كنت أرتعد قليلًا كلما أرى هليكوبتر إسرائيلية تذكرنى بالرعب الذى كانت تحدثه فى الحروب



وكانت رياح الخماسين التى تستمر خمسين يومًا تلك العواصف الرملية التى تهب على مصر كل ربيع قد بدأت يوم وصول كارتر وأسرته. ولكن بالرغم من أن الرياح لسعتنا بحرارتها وملأت عيوننا بحبيبات الرمال التى تحملها إلا أن كارتر وأسرته بدا عليهم أنهم يحسون تلك القوة الغامضة للأهرام التى نحس بها. وقال الرئيس كارتر عند رحيله إلى إسرائيل هو وروزالين «لقد شعرنا بأن حجمنا ضئيل».

وكان وصول كارتر إلى القدس باعثًا على الصدمة. فلم يحيه سوى ألف شخص فى المطار.

وكانت اللافتات التى تمسك بها الجماهير تقول «عد إلى بلادك يا كارتر»، «مرحبًا بشقيق بيلى»، كيف يكون الإسرائيليون إذن يريدون السلام؟. وخلال الموكب الرئاسى إلى فندق الملك داود فى القدس حيث أقام أنور قبل ستة عشر شهرًا كان المتظاهرون المعادون يقتربون منه لمسافة تكفى لقذف سيارته بالبيض.

ولذلك لم أدهش للأسلوب الفظ الذى عومل به الرئيس كارتر خلال خطابه فى الكنيست. لقد

قوبل بالحفاوة فى مجلس الشعب المصرى فى القاهرة. ولكن فى الكنيست قوبلت ملاحظاته بالصمت. ولكن حتى الصمت كان أفضل من كثرة الأسئلة والمضايقات التى انفجرت بعد خطابه. لقد كان الصخب عاليًا لدرجة أن مناحم بيجين رئيس الوزراء استطاع بشق النفس أن يلقى خطابه.

وقال أنور لى ونحن نشاهد معًا ذلك العرض العدائى على شاشة التليفزيون «لقد انتهت». وقد أصاب هذا التعصب من الإسرائيليين الصحافة المصرية بالانزعاج البالغ. قالت الجمهورية «إذا لم يولد السلام فإن على العالم بأسره والولايات المتحدة بصفة خاصة أن تطارد المجرم الذى ارتكب هذه الجريمة ضد الإنسانية». وأعلنت وكالات الأنباء الأمريكية عن أن إمكانات السلام غير قائمة تقريبًا الآن.

وفى ١٣ مارس عاد كارتر وأسرته إلى القاهرة متوقفين لفترة قصيرة فى المطار لأنه أراد أن يناقش مع أنور ما أحرزه من تقدم إذا كان هناك تقدم فى إسرائيل. وكنت مكتئبة جدًا عندما ذهبت مع أنور لمقابلتهما كما كان زوجى غاضبًا. وحيىَ أنور الرئيس الأمريكى بقوله «إن الشعب فى مصر يتميز غيظًا من الطريقة التى عامل بها الإسرائيليون صديقنا جيمى كارتر». وبينما دخل الزعيمان حجرة خاصة لإجراء محادثات جلست أنا مع روزالين التى كانت مكتئبة تمامًا. ومرت ساعة ثم ساعة أخرى. وبينما نحن جالستان فى منطقة الاستقبال بالمطار دعونا أنا وروزالين.

وأدركت أن شيئًا لا يصدق حدث عندما خرج الرجلان، بدا الرئيس متجهمًا للغاية عندما وصل، ولكنه الآن يبتسم. وتفحصت وجه زوجى لأستشف شيئًا. وسألت «أنور، ما الخبر؟

.. ماذا حدث؟».

عند ذلك فقط ابتسم. وقال «الرئيس كارتر وأنا تحدثنا لتونا إلى بيجين فى القدس..

وتوصلنا إلى اتفاق».

كنت أود أن أصرخ. كنت أريد أن أقفز من الفرحة. لا أتذكر شيئًا، فقد جعلتنى تلك اللحظة لا أكاد أبصر شيئًا. والتفت نحو روزالين ولكن كلانا رأت الأخرى بصعوبة بالغة لأن الدموع كانت تملأ أعيننا. «لقد استجاب الله لدعائنا» قلت لها ذلك بينما اتجه زوجانا نحو مؤتمر صحفى عالمى كان فى انتظارهما. وأعلن عن السلام. انتهت عداواتنا مع إسرائيل التى استنزفتنا لمدة ثلاثين عامًا. وبينما الرئيس كارتر يعلن بيانه التاريخى نظرت إلى التوتر الذى تركته على وجه زوجى عملية السلام المجهدة بصفة دائمة.

أنور السادات، مناحم بيجين، جيمى كارتر، هؤلاء الرجال، هؤلاء القادة يتصافحون، يعانق كل منهم الآخر. إن المنظر يصعب استيعابه بسهولة. كان يوم ٢٦ مارس ١٩٧٩ بعد عشرة أيام من إعلان السلام المشترك فى مطار القاهرة. نحن الآن فى البيت الأبيض فى واشنطن، حيث وقع الرجال الثلاثة لتوهم اتفاقيات كامب ديفيد. لا أستطيع أن أصدق أن هذا يحدث فعلًا. كنت مرتبكة طوال اليوم، بدأ اليوم بغداء هادئ مع أسرة كارتر فى الجناح الخاص بهم فى البيت الأبيض. كانت المنضدة معدة لستة: الرئيس ومسز كارتر، رئيس الوزراء ومسز بيجين والرئيس أنور السادات وحرمه. وللمرة الأولى أجد نفسى وجهًا لوجه أمام رئيس وزراء إسرائيل، الرجل الذى أعرف وجهه فقط من التليفزيون والصور التى تنشرها له الصحف المصرية.

وقال بيجين عند التعارف وهو يمد يده: «مسز سادات كم هو جميل أن التقى بك أخيرًا».

وبحركة آلية مددت يدى إلى يده التى اعتقدت دائمًا أنها تنتمى إلى الشيطان، وأجبت: «يسعدنى ذلك». لكن فى قرارة نفسى كنت أرتعش. هل هذا الرجل الذى سبب لنا كل هذا الألم والإحباط سيحترم توقيعه أم سيغير رأيه مرة أخرى؟ وفى منتصف الغداء بدأت مسز بيجين تسعل وتختنق. وقد جلسنا كلنا مصعوقين بينما هى تلهث من أجل الهواء، وأصبح لون وجهها أرجوانيًا، هل ستموت هنا على الفور وأمامنا؟ يا إلهى أرجوك يا رب أن تنقذها. أنقذها. كانت هذه دعواتى. ومدت يدها فى حقيبتها وهى تجاهد لتلتقط أنفاسها وأخرجت منها جهازًا لنثر الرذاذ. وبينما أنا أدعو الله بكل ما لدى من قوة وضعت هى الجهاز فى فمها وأخذت ترش وترش وترش. يا إلهى. وببطء أخذت كحتها تخمد ونوبة الربو التى ألمت بها تنقضى. الحمد لله. الحمد لله، الحمد لله. لقد استمرت نوبتها ثوانى قليلة لكنها كانت أطول ثوان عرفتها فى حياتى.

الآن على المنصة المقامة فى حديقة البيت الأبيض يتحدث كل زعيم ببلاغة عن السلام الدائم. آمل ألا يرى أحد دموعى وهى تنساب على خدى. وحاولت أن أستعيد رباطة جأشى لتركيز انتباهى على المتحدثين، ولكنى لم أستطع. وبدأت أدرك أن شخصية مألوفة تجلس بالقرب منى خارج مرمى بصرى. واختلست نظرة إليها.

يا إلهى، موشى ديان هنا. شخصيًا. وبسرعة رفعت عينى ولكن لأرى شخصية أخرى مألوفة،

أريل شارون وزير الدفاع السابق. وكان قلبى يدق بشدة حتى لتكاد دقاته تظهر عبر ملابسى. كلهم هنا. هذه الأساطير الإسرائيلية التى لعبت تلك الأدوار الضخمة والمفزعة فى حياتنا. الآن وبشكل مفاجئ أصبح هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداءً لنا لمدة ثلاثين سنة أصدقاء.

وظل إحساسى بالوهم طوال حفل العشاء الذى أقيم فى البيت الأبيض للاحتفال بتوقيع اتفاقيات السلام. لقد أعدت المناضد فى خيمة ذات لونين أخضر وأبيض، نفس اللونين الذين استخدمتهما فى حفل زفاف ابنى. وجلس المصريون والإسرائيليون والأمريكيون على كل منضدة. والمناضد ملتصقة بعضها ببعض. ونظرت فى أرجاء الخيمة محاولة استيعابها بكاملها. فمنذ عام ١٩٤٨ وهؤلاء الرجال يحاربون بعضهم بعضًا ويصيبون بعضهم بعضًا ويقتلون الأبناء والأشقاء من الجانبين. الآن يجلسون معا ويقتسمون الخبز. بدت الدهشة على الكثيرين مثلى. هل سأكون قادرة على التحدث بأدب إلى هؤلاء الناس؟ وهل سيسمح لى؟ هل هذا ممكن؟ من الصعب تغيير سنوات كثيرة من الشك والخوف المتبادل بهذه السرعة.

جلست بين الرئيس كارتر ورئيس الوزراء بيجين. لم يكن الحديث عن الحرب ولا عن الاستعداد العسكرى بل عن أطفالنا وأحفادنا. وقال بيجين لى أن ابنته خاسيا فى نفس عمر ابنتى لبنى.. وقال «لا بد أن تأتوا لزيارتنا فى إسرائيل قريبًا أنتِ وزوجك.. وائتوا بأولادكما». نأتى إلى إسرائيل؟.. وأثناء ترفيه ما بعد الظهر الذى كان يقوم به موسيقيون من مصر وإسرائيل وأمريكا نظرت فى أرجاء الخيمة لأرى الإسرائيليين والمصريين يتقدمون بحذر ليعرف كل منهم الآخر. كنت أغمض عينى وعندما أفتحهما كنت أجد كل واحد من الجانبين لا يزال موجودًا. ابنى جمال يضحك مع موشى ديان. لا بد أنهما يتبادلان النكات..

ومنذ أن تم توقيع اتفاقيات السلام اختلف كل شىء.. كل شىء، عندما غادرت أنا وأنور البيت الأبيض فى اليوم التالى بدا كما لو كان عالمًا جديدًا خرجنا إليه. فى رحلته إلى الولايات المتحدة فى ١٩٧٤ عندما كان أنور يزور الأمم المتحدة رفض عمدة نيويورك إبراهام بيم لقاءه. وكان مستر بيم مثل كثيرين آخرين يساوى بين النزاع السياسى بين مصر وإسرائيل والنزاع الدينى بين كل اليهود وكل المسلمين. لكنه كان مخطئًا فبالرغم من أن بعض التعاطف الدينى لا يزال قائمًا بوضوح إلا أن اليهودى فى الولايات المتحدة أمريكى وليس إسرائيليًا وكان بيننا شجار. وتساءلت وقتها عما إذا كان العمدة بيم يعتقد أنه عمدة تل أبيب أم عمدة نيويورك.

وقد واجهت أنا نفسى موقفًا عدائيًا فى نفس الزيارة من موظفة بروتوكول فى لوس أنجلوس،

وأنا أستقل السيارة قادمة من المطار. ردت بصعوبة عندما سألتها عن اسمها وعما إذا كان لديها أطفال وعما إذا كانت تستمتع بالطقس المشمس فى كاليفورنيا الجنوبية. وسألت مسئول المدينة الذى كان يرافق أنور عندما وصلنا إلى الفندق: «ما حكاية هذه السيدة؟» وبدا عليه الحرج، وقال موضحًا: «لقد رفضت فى البداية أن تقابلك تمامًا مدعية أنها مريضة. وقلت لها إنها كموظفة

بروتوكول ليس من شأنها أن توافق أو لا توافق على ضيوفنا. لكنها يهودية وكان الأمر صعبًا عليها».

الآن انقضى كل ذلك والعكس يحدث فى الواقع. فقد تلقينا دعوات كثيرة جدًا لحفلات واستقبالات فى كل أنحاء أمريكا لتسلم شهادات تكريم من الجامعات ومفاتيح عشرين مدينة مختلفة على الأقل. ومنذ تلك اللحظة وفى أى مكان من العالم أذهب إليه كنت أرى أن أكثر الذين يتحدثون عن زوجى بتأثر شديد مصحوب عادة بالدموع فى أعينهم هم اليهود.

وكان النقيض أكثر ترويعًا. ففى نيويورك، فى مساء اليوم الذى تم فيه توقيع اتفاقيات السلام تم إضاءة مبنى «الأمبايرستيت» بألوان مصر وإسرائيل. بينما كان الجو فى الدول العربية مختلفًا جدًا، حتى أثناء توقيع أنور على الاتفاقيات التى سوف تجلب السلام إلى منطقتنا، كان الفلسطينيون يدعون إلى حظر بترولى ضد مصر والولايات المتحدة. واندلعت المظاهرات المعادية لزوجى فى سوريا ولبنان. وفى إيران استولت الجماهير المسعورة على السفارة المصرية رافعين لافتات تظهر أنور معلقًا فى مشنقة.

حتى الملك حسين فى الأردن الذى كان أكثر الزعماء العرب اعتدالًا أخذ يهدد بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر. لقد جلب السلام لمصر أصدقاء جددًا ولكنه حول أصدقاءنا القدامى إلى أعداء. ولم يكن غريبًا أن يكون أشدهم كرهًا معمر القذافى. لقد قال زعيم ليبيا إنه لن يستريح حتى يلقى أنور مصرعه. كم أسفت لقصر نظرهم. وكم أحسست بالفخر بالشعب المصرى الذى اصطف على جانبى شوارع القاهرة لاستقبال وتحية أنور عند عودته إلى مصر. فهم الذين قاسوا كثيرًا فى الحروب وهم الذين يعرفون تمامًا قيمة السلام.

كانت الجماهير تهتف «بالروح بالدم نفديك يا سادات».. «بالروح بالدم هنكمل المشوار».

وبقيت حفلة واحدة، حفلة تعنى بالنسبة لأنور أكثر من أى حفلة أخرى. ففى ٢٥ مايو ١٩٧٩ وبعد شهرين من عودته طرنا إلى العريش ومعنا الوزراء للاحتفال بأول مرحلة لعودة سيناء. لم يكن قلبى قط كبيرًا مثلما كان فى هذا اليوم. لقد وفى أنور بوعده للشعب المصرى لاستعادة أرضه. وقد وفى بالوعد دون سفك الدماء. كم بدت العريش جميلة وهادئة فى ذلك اليوم. أشجار النخيل كانت تلوح على الأرض المنبسطة ومن خلفها البحر الأزرق. كانت هناك ذكريات كثيرة. فهنا

بدأنا- أنور وأنا- حياتنا الزوجية معًا قبل ثمان وعشرين سنة. وفيها ذاقت مصر أقسى ذل بفقدان هذه الأرض لمدة إحدى عشرة سنة. الآن وبطريقة سلمية تعود إلينا ثانية.

وعندما حمل حرس الشرف العلم المصرى ليرفرف مرة أخرى فوق سيناء انحنى أنور أمامه وقبله وفعل كل الوزراء نفس الشىء. وكثير من مخضرمى الحرب الذين تجمعوا معنا فى العريش لمشاهدة عودة الأرض التى حاربوا ببسالة من أجلها، لقد دمعت عيونهم كما دمعت عيناى. إنه من أجل هذه اللحظة صلى زوجى وعمل لمدة طويلة. من يصدق أن ذلك كان سيحدث فعلًا؟

لقد شعرت بقيمة هذا الإنجاز عندما قبلنا- زوجى وأنا- فى سبتمبر دعوة بيجين لزيارة إسرائيل. وعندما وصلنا إلى حيفا عن طريق البحر تم استقبالنا بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية لنا. وكان ينتظرنا على الشاطئ جموع من الناس يتزاحمون بشدة لدرجة أنك لا تستطيع رش الملح بينهم. كانت لافتاتهم تقول: «مرحبًا بالسادات»، «مرحبًا.. مرحبًا»، لقد كانت الإثارة واضحة فى أعينهم وفى ابتساماتهم بما يكفى لإدراك أنها لم تكن حفلة ترحيب أمرت بها الحكومة بل حفلة ترحيب حقيقية خالصة.

وقلت لأنور بينما كنا نستعد للنزول إلى أرض إسرائيل: «لماذا قضينا كل هذه السنين نحارب هؤلاء الناس؟ وضحك أنور وقال: «ليس هذا يا جيهان وقت الكلام فيه».

كانت إليزا بيجين كريمة جدًا، فقد صحبتنى لزيارة المستشفيات ومركز للمعوقين ومدارس تمريض وحتى لإلقاء محاضرة بالجامعة عن جهودنا فى مصر من أجل المعوقين. وفى أحد المستشفيات تم استقبالى استقبالًا حارًا وجعلونى أشاهد جهاز فحص آلى «س. إيه. تى» كان الإسرائيليون فخورين به للغاية بعد أن حصلوا عليه مؤخرًا. ولم أستطع السكوت فقلت «ونحن لدينا واحد أيضًا فى الوفاء والأمل». وحملق أنور فى وجهى قائلًا «لا تقولى ذلك.. هذا جديد بالنسبة لهم وهم فخورون به». وقلت «حسنا وأنا أيضًا فخورة بجهاز الفحص الآلى «سى، إيه، تى» الذى لدينا، وأضفت مؤكدة «الذى حصلنا عليه من سنوات» قال أنور «فقط لا تتحدثى عنه». كنت سعيدة جدًا لأننى قابلت «لسيه رابين» زوجة إسحق رابين رئيس الوزراء السابق فى حفل غداء. فقد التقينا من قبل فى عام ١٩٧٥ فى مؤتمر المرأة العالمى التابع للأمم المتحدة الذى عقد فى مكسيكو سيتى لكنى لم أتحدث إليها، ورفضت حتى مصافحتها لأنهم كانوا يحتلون أرضنا. أما الآن فقد احتضنت كل منا الأخرى.

قلت لها: «أعتذر عن فظاظتى فى مكسيكو سيتى».

وردت قائلة «لا عليك».

وأردت أن أبلغها بالارتياح الذى أشعر به الآن، فقلت لها «كسيدة أردت أن أجلس معك لبحث مشكلات مشتركة بيننا لكن السياسة منعت ذلك.. دعينا نجلس معًا الآن» وجلسنا.

وكانت ابنتى جيهان مفتونة بشعب إسرائيل، أينما كانت تذهب للفرجة كان الناس «يلتفون حولها فى الشوارع للترحيب بها. وفى أحد المحلات توقفت لشراء أشياء تذكارية ورفض صاحب المحل أخذ أى ثمن لها وأصر قائلًا: «من فضلك أقبليها كهدايا من بلدنا لأسرتك».

كانت لا تزال هناك لحظات تبعث على الصدمة والذعر. فقد كنت أرتعد قليلًا كلما أرى هليكوبتر إسرائيلية تذكرنى بالرعب الذى كانت تحدثه فى الحروب. كانت الصدمة أقسى عندما طرنا بالفعل بالهليكوبتر مع عيزرا وايزمان فى الطريق إلى المطار لنعود إلى مصر. قال هذا الرجل الرائع الذى أحبه زوجى كثيرًا جدًا، «هل تحبين أن تأتى إلى المقدمة وتجلسى بجانب الطيار؟.. يمكنك من هناك أن تشاهدى أفضل».

ظللت أحملق فى الطيار فى زيه العسكرى وهو يشير إلى المناطق الزراعية التى نحلق فوقها والمناطق الصناعية والمناطق التى يقطنها عرب ويهود معًا. هذا الضابط نفسه بهذه الطائرة نفسها يمكن أن يكون واحدًا من الذين كانوا يقتلون جنودنا قبل ذلك بسنوات قليلة. الآن يأخذنا فى جولة للفرجة وهو فخور بنا.

وعدنا إلى القاهرة، وأسقطت من اعتبارى الانتقادات التى كانت قد بدأت تظهر فى الصحافة المصرية تتهم أنور بأنه دفع أكثر مما ينبغى ثمنًا للسلام مع إسرائيل. هل هم غير مهتمين باستعادة سيناء؟. ولم أدهش أيضًا للمظاهرات المتفرقة ضد الحكومة من جانب المتطرفين الإسلاميين. بالليل عندما أعلن زوجى والرئيس كارتر معًا عن أنه تم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل اضطر البوليس لتفريق مظاهرة فى جامعة أسيوط بالغاز المسيل للدموع. أدركت أن هؤلاء المتطرفين لن يوافقوا أبدًا على السلام. ولكننى اعتقدت أنهم سيرون قريبًا جدًا أنه لم يكن لدى مصر بديل.

وأخذت النيران التى كانت على وشك أن تلتهم زوجى تنتشر.

> أدركت فى وقت مبكر أن المتطرفين لن يوافقوا أبدًا على السلام



حرف

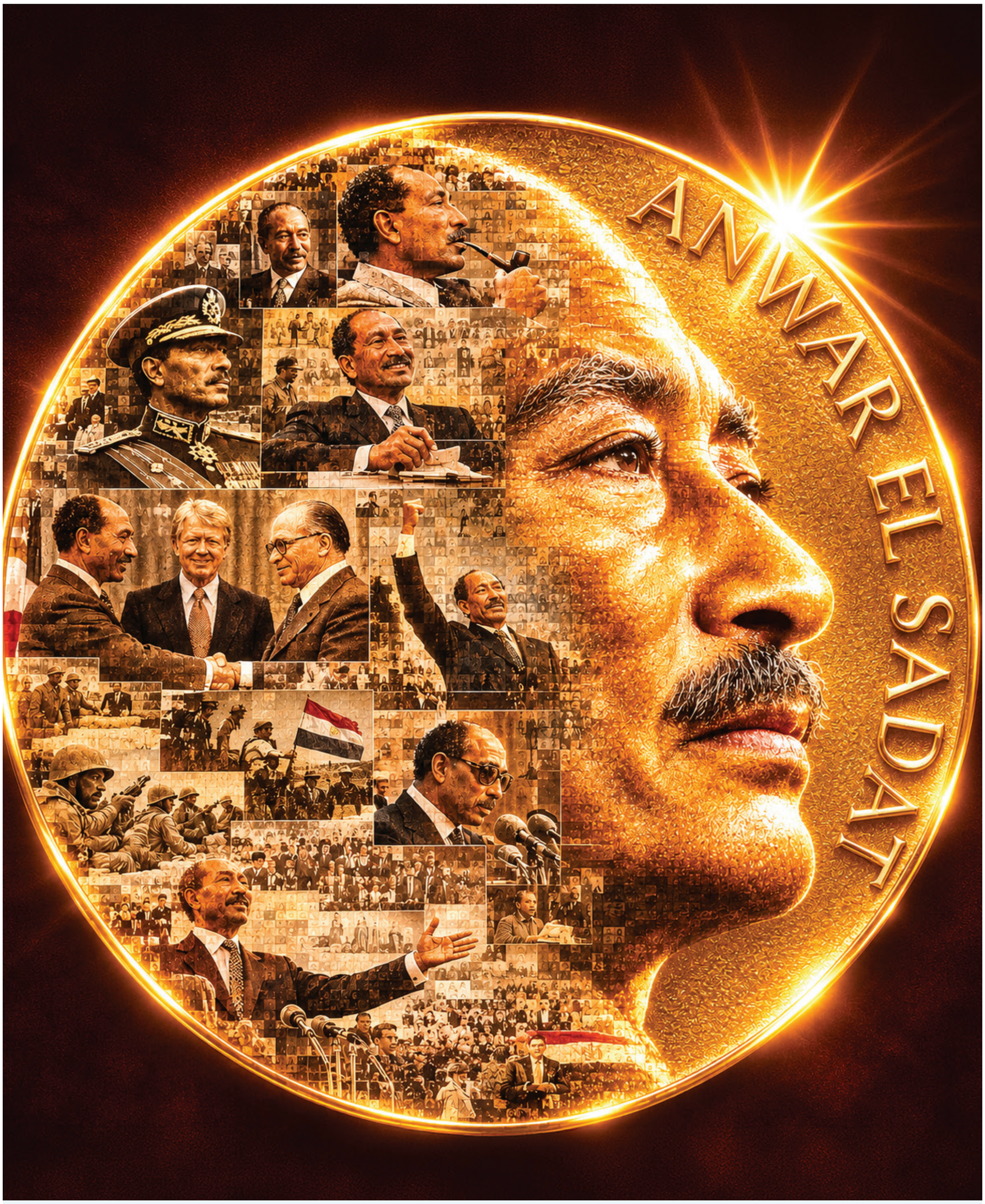
إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

22

الأربعاء
25 نوفمبر 2026
15 جمادى الآخرة 1448
16 هاتور 1743

المستشار الفنى: عيد رحيل

مدير التحرير: محمود الشهاوى
الإخراج الفنى: محمد جلال فراج
سكرتير التحرير: بيجاد سلامة
الديسك: كرم منصور
التصحيح: وائل فصيح
مدير الإنتاج: رائف درويش



يشرفنى بالغ الشرف، نيابة عن أسرتى، أن أتسلم وسام الكونجرس الذهبى الممنوح لوالدى الرئيس الراحل أنور السادات.

وأود أن أتوجه بالشكر إلى جميع أعضاء الكونجرس الأمريكى الذين أسهموا فى إقرار هذا التكريم، وإلى كل من دعم هذه المبادرة وعمل على خروجها إلى النور، وكذلك إلى الرئيس ترامب الذى وقع قانون منح الوسام، وإلى كل من شارك فى تنظيم هذه المراسم الاستثنائية.

شكرًا لكم جميعًا من أعماق قلوبنا، وباسم أسرتى.

لو كان والدى معنا اليوم، لشعر بتأثر بالغ بهذا التكريم، خاصة عندما يعلم أسماء الرجال والنساء الاستثنائيين الذين حصلوا على هذا الوسام منذ تأسيسه.

كان والدى رجلًا بسيطًا، متواضعًا وطيبًا، وكان يدرك جيدًا معنى أن يكون الإنسان محرومًا أو يعيش فى ظروف صعبة.

لقد استخدم سلطات منصبه رئيسًا للجمهورية لتحسين حياة شعبنا، وتحقيق السلام فى منطقتنا من العالم.

وأؤكد لكم، ولأعضاء الكونجرس الأمريكى، أن مصر ستواصل دورها باعتبارها الركيزة الرئيسية للاستقرار فى الشرق الأوسط، وستظل أيضًا صانعة للسلام فى هذه المنطقة المضطربة.

هذا هو قدرنا، وهذا هو مستقبلنا، وسنعمل مع الولايات المتحدة لتحقيق هذا الهدف النبيل.

شكرًا لكم.

من خطاب جمال محمد أنور السادات
أمام الكونجرس 18 نوفمبر 2026